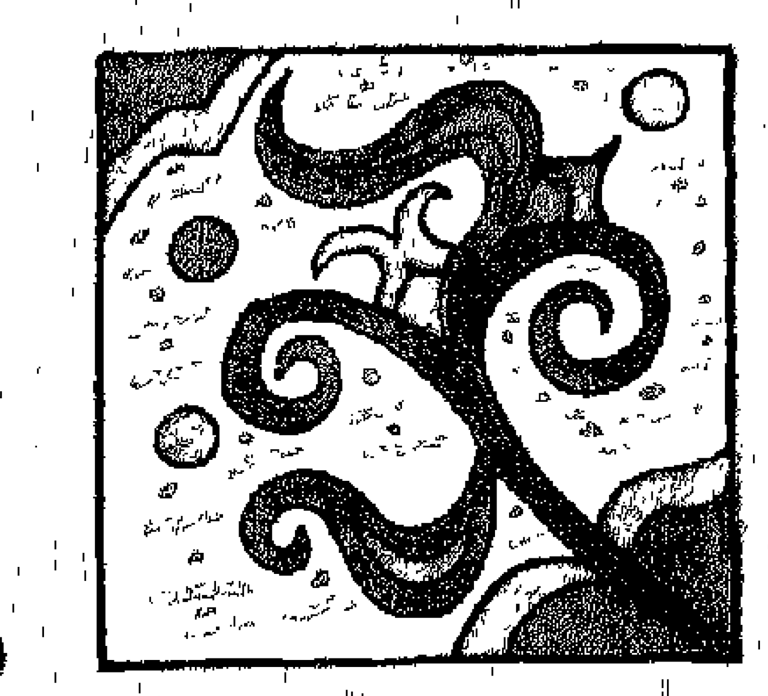


سيد الخلق صلى الله عليه وسلم

طفولته وصباه

بقلم: كريمان حمزة ● رسوم: صلاح بيصار

دار الشروق


سيّد الخلق
صلى الله عليه وسلم
طفولته وصباه

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٥٥٥ - تلكس SHOROK 20175 LE

سيد الخلق صلى الله عليه وسلم

طفولته وصباه

بقلم : كريمان حمزة • رسوم : صلاح بيصار



الجزء الأول

دار الشروق


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم



جذبت السيرة النبوية العطرة آلاف الكتاب من أقطار مختلفة وعلى مر الزمن ليكتبوا فيها ، وفى مصر تسابق المؤرخون فى هذا الميدان الكريم ، وقد كان من الشرف لى أن كتبت السيرة النبوية الشريفة عدة مرات ، كتبتها جزءًا من موسوعة التاريخ الإسلامى ، ومرات كتبتها تلبية لطلبات جامعات وهيئات مختلفة ، وقرأت أكثر ما كتب قديماً وحديثًا عن هذه السيرة العطرة باللغة العربية وبغيرها من اللغات التى أعرفها .

ثم قرأت ما كتبته الأستاذة كريمان حمزة وأشهد لقد وجدت فيما كتبت شيئًا جديدًا ، فمن الواضح أن قليلات من النساء مَنْ اتجهن لهذا النوع من الكتابة ، ولأن سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت فى حاجة لقلم سيدة بالإضافة إلى أقلام الرجال فلما كتبت الأستاذة كريمان حمزة هذه السيرة ظهر فيما كتبت روح المرأة ؛ فقد استطاعت أن تعبر أكثر من غيرها عن حزن العروس آمنة عندما فقدت زوجها بعد لقاء قصير ، وكذلك كان موقفها من تصوير هلع حليمة السعدية أم الرسول صلوات الله وسلامه عليه من الرضاع عندما سمعت عما هدد حياة رضيعها الحبيب كما صوَّرتْ

بذكاء وحرص عاطفة الميل الذى دب فى أعماق السيدة خديجة نحو محمد ودفعها لطلب يده عن طريق امرأة اختارتها لذلك .

وهكذا على الرغم من كثرة ما كُتِبَ عن حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنا فى حاجة لقلم سيدة لتضيف شيئًا لهذه الدراسة .

وقد قامت السيدة كريمان حمزة بذلك خير قيام بالإضافة إلى الكثير من التعليقات المفيدة والتحليلات العميقة التى جاءت فى أسلوب رشيق فأكسبت العمل قوة ونضارة .

من أجل هذا يسرنى أن أقدم هذه الدراسة ليس فقط للصبيان بل للقراء بوجه عام ، وأعتقد أنها ستنال حقها من الإقبال والتقدير .

وأدعو الله أن يحسن جزاء الكاتبة عن هذا الجهد المشكور.

د. أحمد شلبى

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

أردت بهذا الكتاب

أردتُ بهذا الكتاب أن أجذب أبناء المستقبل إلى شخصية المصطفى المختار . . فحاولت أن أكتب السيرة بحيث تُقرأ بشوق ولهفة وحنينٍ وحب كبير . . وحاولت قدر المستطاع أن أقف عند سلوك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام الأحداث العظام والأمور الجسام . . ليكون قدوة ونبراسًا لأبنائنا . . يعرفون من خلاله كيف يتعاملون مع الله . . ومع الناس . . كل الناس . . ومع الأشياء . . وكيف يتحولون إلى رحمة مهداة . . فيحسنون الخلافة لله فى أرضه . . يعشقون الخير ويتمنون وقوعه بين الناس . . كل الناس . . حتى يكونوا سببًا من أسباب الحق والخير والجمال فى هذا العالم . . الذى أراده الإسلام أمةً إنسانيةً واحدة « إن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون» الآية ٩٢ سورة الأنبياء . . « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » الآية ٥٢ سورة المؤمنون . .

أردت بهذا الكتاب أن أقدم شخصية «محمد » الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه . . كيف كان يتعامل مع الأعداء قبل الأحباب ، ومع أهل الكتاب قبل المسلمين . . مع المرأة . . مع الطفل . . مع الشيخ . . مع المريض . . مع الأسير . . مع العاصى . . مع الضال . .

أردت أن ألفت النظر إلى شخصية « محمد » القرآن الذى يمشى على الأرض . . فيحل الأمن والسلام . . والخير والحب أينما سار وحل . .

أردت أن أساعد ولو بجزء ضئيل فى صناعة عقلية أمة يأتى



هواها تبعًا لما جاء به وحى السماء . . تعرف الهدف الذى تكرس له الوجود . . والجهود . . فتعمل لوجه واحد هو الله فيكفيها الله كل الأوجه وتعتز بالله . . فيعزها الله بنصره . . وتخدم الله . . فتخدمها الدنيا ولا تستخدمها . .

أردت أن أشارك فى صناعة جيل يدرك أن الله قد رشحه لمنزلة ضخمة . . هى عمارة الأرض بالعلم الذى ألح عليه الإسلام بالعمل الذى نادى به القرآن وأكد عليه وقرنه بالإيمان .

جيل قد امتلأ قلبه بحب الله وحب أنبيائه ورسله . . فلا مكان للشيطان وأعوانه . . جيل يمر مَرَّ الكرام على المعاصى والآثام . . والمظالم التى طفحت بها دنيانا المعاصرة . . فيقدم القدوة الطيبة والهدف النبيل .

* * *

وبعد فقد ابتغيت بالصورة الملونة المصاحبة للكلمات أن أخاطب الأبناء بلغة العصر المليئة بكل مظاهر الجذب والتشويق والزينة ، أردت أن أخاطب جيل الفيديو والتلفاز بنفس الأدوات الفعالة المشوقة . . بالصورة الجميلة . . والريشة الأنيقة . . واللقطة التى تُحفر فى القلب والخيال . . سنوات بعد سنوات . .



ولقد حرصنا تمام الحرص على ألا يظهر فى الصور أى شخصية محظورة . . كالأنبياء ـ والملائكة . . والعشرة المبشرين بالجنة . . وآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

دعاء من الأعماق أن يتقبل الله هذا العمل . . وأن ينفع به .



عَبدُ المُطَّلِب
جَدُّ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم



كَانَ عَبْدُ المطَّلِبِ بنُ هَاشِمٍ جَدُّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَكْرَمِ بُيُوتِ قُرَيْشٍ فى مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ والَّتِي كان لها شَرَفُ خِدْمَةِ البَيْتِ الحَرَامِ والكَعْبةِ المُشَرَّفَةِ وسِقَايَةِ الحَجِيجِ وإطْعَامِ الفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ ، وَكَانَ عَبْدُ المُطَّلَبِ يُمارِسُ سِقَايَة الحَجِيجِ بِنفْسِهِ فى حِيَاضٍ من جِلْدٍ وَرغْمَ حُبِّه لِهذاَ العَمَلِ إلاّ أَنَّهُ كان يَبْذُلُ مجْهوداً شاقًّا نَظَراً لقلَّة الماءِ وبُعْدِه عن مَكَانِ الحُجَّاجِ .

باتَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يُفكِّرُ فى وَسِيلةٍ سَهْلةٍ تُيسِّرُ للحَجِيجِ الماءَ ، وسَمِعَ من أقاصِيصِ الروَّاةِ عن بِئرِ زَمزَمَ الَّذى تَفَجَّرَ تحت قدمى إسماعِيلَ بنِ إبْرَاهِيمَ ثم طَمَستْها وأَخْفَتْ مَعَالِمَها قَبِيلةُ تُدْعَى (**جُرْهُم**) . وَتمنى عبدُ المُطَّلِبِ لو عَرفَ مَكَانَها لظَلَّ يَحفُرُ الأرْض حتى يعثَر على زَمْزَم ويَسْقِى الحَجِيجَ بسهولةٍ .

وفى أَحَدِ الأَيَّام ، عادَ مُنْهكَ القُوىَ من سِقايةِ الناسِ طِوالَ النهارِ ، وارتَمَى على الأرضِ وراحَ يُفكرُ فى بئر زَمْزَمَ ثم

غَلَبَهُ النَّوْمُ ، فرأى فيما يرى النائِمُ هاتفاً يقول : يا عَبْدَ المُّطِلبِ احفُرْ « طيبةَ » فقال وما طيبةُ ؟ ولكن الهاتِفَ كان قد انصرفَ واستيقظَ عبدُ المُطَّلِبِ وهو يسأَلُ نَفَسَه ما هِيَ طِيبةُ ؟

وفى اللَّيْلَةِ الثَّانية عندما ذَهَبَ فى نَومٍ عَمِيقٍ بَعْدَ مَجْهُودٍ شاقٍ سَمِعَ عبدُ المُطَّلِبِ نَفْسَ الصَّوْتِ يقولُ له : احفرْ « بَرَّةَ» فقالَ : وما بَرَّة ؟ ولكِنَّ الهاتِفَ كان قد انْصَرَف . . . وظَلَّ عبدُ المُطَّلِبِ يتساءلُ طِوَالَ الْيَوْم ما هى طيبةُ ؟ وما هى بَرَّة ؟ وفى آخرِ الليل كَانَ التَّعبُ قد وصلَ به إلى مَدَاه فألقَى بنَفْسِه على الأَرْضِ وذَهَبَ فى نَوْمٍ عَمِيقٍ ، فسَمِعَ الهاتِفَ يَقُولُ له : احفُرْ « المضْنُوَنةَ » قال عبدُ المُطَّلِب بلهفةٍ وما المضنُونةُ ؟ ولكِّنَّ الهاتِفَ اخْتفَى . شُغِلَ عبدُ المُطَّلِبِ بِهذِه الرُّؤَى ، وراحَ يُفكِّرُ ويَسْتَشِيرُ النَّاسَ فقالُوا لَهُ : إنَّ كَثْرَةَ تَفْكِيرِه فى زَمْزَمَ هو الذى جَعَلَه يَرْى هذِه الأَحْلاَمَ . ولكِنّ عبدَ المُطَّلبِ كان يَشْعرُ فى قَرارةِ نفسِهِ أن هذه الرؤَى لابد أن تَعْنِيَ شيئاً ، فَظَلَّ مُتَحيِّراً مُشْتَاقاً لمعرفةِ حقيقةِ هذا الهاتِفِ . . . وفى الليلةِ الرابِعَةِ جاء نَفْسُ الهاتِفِ وقَال : يا عْبْدَ المطَّلبِ احفُرْ زمْزَمَ فَقَالَ عبدُ المطَّلِبِ : وما زَمْزَمُ ؟ فقال الهاتِفُ فى هدوءٍ « لا تَنْزَحْ ولاتذُم» (١) أى تَفْرَغُ من الماءِ الشِّهِيّ . . . فقال



(١) أى لا تجف أبدًا .

عبدُ المُطَّلب مَلْهُوفاً: وأَيْنَ أجِدُها ؟ قال الهاتِفُ عند نَقْرَةِ الغُرابِ الذى يَكُونُ فى جَنَاحيه بَيَاض ، ويَكونُ بَقيَّة ريشِه أسْوَد . فقَفزَ عبدُ المطَّلبِ من فِراشِهِ وانطَلَقَ إلى سَاحَةِ الكَعْبةِ، وراحَ يبحثُ بِعَيْنَيْه حتى رأى غُرَاباً لَونُه أَسْوَدُ وفى جَنَاحَيْه ريشٌ أَبْيَض ، ينبِشُ بِرِجْلَيْه وينقرُ بمنقاره فى المكانِ الذى تُذبَحُ فيه الحَيَوانات التى تُهْدَى إلى البيتِ وتُوزعُ على الفُقَراءِ . . رَكَّزَ عبدُ المُطَّلِبِ نَظَره عليه وتأكدَ أن هذا هو المكانُ الذى إنْ حَفَرَه وَجَدَ زَمْزَمَ .

جَرَى عَبْدُ المُطَّلِبِ إلى بيتِهِ وأخذَ فأساً ومقْطَفاً ، ونادى على ولدِه الوحيد (**الحارث**) واتجهَ به إلى الكَعبةِ، وأخذَ يحفُر دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ ، وابنهُ **الحارثُ** يُسَارِعُ فى معاونَتِه حتى ارتفعتْ الشمس فى السماءِ ، ومع ذلك لم يَشْعُرا بِوَهَجِ الشَّمْسَ المحْرِقَةِ التى لَفَحَت المكانَ كلَّه وقتَ الظهيرةِ ، بل راحا ينشدانِ الأغانِيَ والأشعارَ وهما فى حالةٍ من السرُورِ والترقُّبِ أدْهَشَتْ كلَّ المارَّةِ .



وذَاعَ خَبرُ الحفرِ الذى يَقُومُ به سَيِّدُ قُرَيْشٍ عبدُ المُطَّلِب وابنُه الحارِثُ ، فأغضَبَ ذلك رُؤَساءَ القبائلِ واعترَضُوا على الحفرِ بجوار الكعبةِ ، وحاولُوا مَنْعَ عَبدِ المُطَّلب

قالَ لهم **عَبْدُ المطَّلِب** : أَمَّا الذَّهَبُ والسِّلاحُ فَهُما مِلْكٌ للكَعْبةِ ، وأَمَّا الماءُ فاجَعَلُوه بَينى وبَيْنكم حَكَماً فإِنْ حُكِمَ لكم بِهِ فَهُوَ مَاؤُكم ، وإِنْ حُكِمَ لى فهو مَائى الَّذِى رَزَقَنِى اللهُ به دُونكم .

فَرَحَّبَ القَوْمُ بِهذاَ الرَّأْيِ وقال كَبيرُهم : نَذَهَبُ إلى العرَّافَةِ (**كاهنةِ بنى سعد**) التى تسْكُنُ عِنْدَ حُدُودِ الشامِ لتُوَجِّهَنا إلى الصَّوَابِ . . . وهَلَّلَ الجَمِيعُ للفِكْرةِ .

وفى الصَّبَاحِ خَرَجَ عَبْدُ المطَّلِبِ ومَعَه عِشرون رَجُلاً مِن رِجالِه ، وخرجَتْ قريشٌ ومعها عِشرُون رَجُلاً من رِجَالِها . . وعِنْدَما اقترَبُوا من حُدِودِ الشَّامِ ، نَفِدَ الماءُ الذى معهم وكادُوا يهلكُونَ جميعاً . . فقَرَّرَ البعضُ العودةَ إلى مَكّة ، وقَرَّرَ البعضُ الآخرُ البقاءَ فى أماكِنهم حتى الموْتِ ورَفَعُوا الأمْرَ إلى **عَبْدِ المطَّلِب** . . . فصاحَ فِيهِم :

ما هذا العَجْزُ والاسْتِسْلامُ للمَوْتِ . . . لا يصحُّ أن نَيْأسَ من رَحْمةِ اللهِ ولنواصِلِ السَّيْر حتى يُظْهِرَ اللهُ الحَقَّ ويشمَلَنا برحمتِه وقد يَتفَجَّرُ الماءُ من تحتِ أقدامِنا بقدرةِ اللَّهِ ، ثم اعتدَلَ واقفاً وركِبَ ناقتهُ وزَجَرَها وما إن اعتدَلَت الناقةُ واقفةً حتى فُوجِئَ الجميعُ بالماءِ يتفجرُ من تحتِ أرجُلِ

النـاقَةِ . . . فَكَّبر **عبـدُ المُطَّلِب** وقـال أبْشِـرُوا يا قـومُ فقـد سقَانـا اللهُ . . . فانْدَفَعَ القُوْمُ إلى الماءِ يشرَبُونَ ويسْقُون جِمَـالَهم وركَائِبَهـم ، ثِم رَجَعُـوا إلى أنْفُسِهـم وقـالَ زعِيمُهم يا قومُ: لقد ظَهَرَ الحقُّ واضِحًا جَلياً . . وإنَّ **عبْدَ المُطَّلِب** لأقربُنا إلى اللهِ وإلى الخيْرِ وأبْعَدُنَا عن الشِّر ، وإِنَّ الذى سقانا فى هذه الصَّحَراءِ هُوَ صاحُبُ زَمْزَمَ وإِنَّ زَمزَمَ خَالِصة **لعبد المُطَّلِب** سيدِ قُرَيْشٍ . .ثم عادَ الجميعُ إلى مكَّةَ راضِينَ مُسْتَبْشِرِينَ .



ومُنذُ ذلك اليومِ صارت زَمَزمُ حقاً لآلِ عبدِ المُطَّلِبِ يَسْقونَ منها الحَجيجَ .

« الذَّبيـــحُ »

ظَلَّ **عبدُ المطَّلِب** يعملُ فى سقايةِ الحَجِيجِ ، ويُرزَقُ فى كلِّ عامٍ بولِدٍ حتى بلغَ بنُوهُ عشْرَةَ رِجَالٍ ، عِندَئِذٍ شَعَر عبدُ المُطَّلِبِ أَنَّ الوَقْتَ قد آنَ لِيَفِيَ بِنذْرِه فَجَمَع أولادَه وقال لهم :

لقد تمنيتُ على اللهِ ذاتَ يَوْمٍ أَنْ يَمْنَحَنِى عَشْرَةَ أبناءٍ أَحْمِى بهم ظَهرِى وأَشُدُّ بهم من أزْرى . . ونَذَرْتُ إن مَنَحَنِى إياهُم لأذبحَنَّ له ولداً تَقَرُّباً وعِرفاناً . . وها قد آن الأوانُ لأفِيَ بالنذرِ فماذا ترونَ ؟ قالَ الجَميعُ : كيفما تَرى يا والِدَنـا . . وقَدَّمَ كلٌّ واحدٍ منهم نَفْسَه فَسَعِدَ **عبدُ المطَّلب** بطَاعةِ أبنائِه ورِضاهم ، واتجهَ الجميعُ إلى سادِنِ الكعبةِ ليقرعَ بينهم بالقِدَاحِ . .



وكانَ من عادةِ العَرَبِ كُلَّما احتارُوا فى أمرٍ هامٍ ، أن يَلْجَأُوا إلى القِداحِ ، فما أشارتْ بِفِعْلِه فَعَلوه ، وما أشارتْ بتَرْكِه تركوه . والقِداحُ أشْبَهُ بالقُرْعَةِ التى نلجأُ إليها فى أيامِنا هذه . . وكانَ العَرَبُ يؤمنونَ بالقِداحِ إيماناً قويًّا . . . ولما **ذَهبَ عبدُ المُطَّلِبِ إلى سادِنِ الكعبةِ (خادم الكعبة) أمَرَه أن يُدِيرَ القِداَحَ بين أبنائِه ، فأيُّهم خرجَ باسمه فهو الذَّبِيحُ** . .

ثم ضَرَبَ القِداحَ فخرَجَ اسم (عبدُ الله) أصْغرُ أبْناءِ عبْدِ المطَّلِب وأحَبُّهُم إلى قَلْبِه . . كما كان (عَبدُ الله) محبوباً من أهل مَكَّة كُلِّها لِسَماحَتِه ورقَّتِه فى معاملةِ الناسِ وبُعدِه عن لهوِ الشبابِ وانْحِرَافاتِهم . فلما وقعَ عليه القِداحُ فزِعَ كلُّ مَنْ فِى الكَعُبةِ . . ورفضُوا ذَبْحَهُ ولكنَّ عَبْد المُطَّلِبِ أخَذَ عَبْدَ اللَّه من يَدِه إلى المْذبَح فَصَرخَتْ نِساءُ قُرَيْشٍ ، وتعلَّقَت إحْدَاهُنَّ بِجِلْبابِ عَبْد المُطَّلِب وراحت تَتَوَسَّلُ إليه وتَرْجُوه بِأحَرِّ الكَلِمَات حتى بكى كلُّ الحاضرِينَ ، وتَقَدَّمَ أَحَدُ مشايخِ القبائِلِ وقالَ لعبدِ المُطَّلِبِ : إنَّك إنْ ذَبحْتَ ابنَك سَنَنْتَ سنةً سيئةً وسيتبعُكَ الآخرُونَ لأنك قُدْوَةُ الناسِ جميعاً . . فلا تذْبَحْ أحداً من أبنائِك ولْنَذْهَبْ جميعاً إلى عرَّافِةِ يثربَ فما حَكَمَتْ به فهو الحُكْمُ الحقُّ . . .

ذَهَبَ عبدُ المُطلبِ ومعه بعض زُعماءِ القبائِلِ إلى يَثْرِبَ والْتَقَوْا بالعرَّافِة . . وعرضُوا عليها الأمْرَ . . فقالَتْ لهم دَعُونى ثلاثَةَ أيَّامٍ أُفكِّرُ فى هذا الأمْرِ . . وبعدَ ثلاثةِ أيامٍ قالت لهم :

ـ كم الدِّيَةُ عِندَكُم ؟ (والدِّيَةُ ما يُدْفَعُ عِوضاً عن القتِيل) .

ـ قالوا : عَشْرةٌ من الإِبِلِ .

ـ قالت : آتونى بعشرةٍ من الإِبِلِ فقرِّبُوها وقرِّبُوا عبدَ الله

ـ **قالت : آتونـى بعشرةٍ من الإِبِلِ فقرِّبُوها وقرِّبُوا عبدَ الله** ثم اضرِبُوا عليهما القِدَاحَ ، فَإِنْ خَرَجَتْ القِدَاحُ على الإِبِلِ فاذْبَحوهَا ، وإِنْ خَرَجَتْ على **عبدِ الله** فزيدوا فى الإِبلِ عَشْرةً ، وهَكَذَا تَسْتَمِرُّون فى زيادة الإِبلِ عَشْرَةً بعد عَشْرَةٍ حتى تقعَ القِداحُ على الإِبِلِ ، فمتى وقعتْ على الإِبلِ فاعلموا أن ربَّكُم قد رَضِىَ بِهذَا الفِدَاءِ .

فلمَّارَجَعُوا إلى مَكَّةَ جَاءوا بِعَشْـرَةٍ من الإِبِلِ ، وضرَبُوا القِداحَ عليها وعلى **عبدِ الله** فخَرَجَـتْ القِـدَاحُ على **عَبْدِ الله** فزادوا الإِبِل عشرةً فخرجت القِداحُ على **عبدِ الله** ، ثم ما زالوا يزيدون عَشْرَةً فَعَشْرَةً حتَّى بَلغَت المائَةَ ، ثم ضُرِبت القِداحُ فخرجت على الإِبِلِ .. فصاحَ القوْمُ .. الحمدُ للهِ .. الحمدُ للهِ لقدَ رضِىَ ربُّنا . . . وأمر عبدُ المُطَّلِبِ بالإِبِلِ المائةِ فذُبِحَتْ وتُرِكَتْ طعاماً لأهلِ مكَّةَ من الفقراءِ والمساكينِ بل ومن الحيواناتِ والطيورِ .



اطْمَأنَّ **عبدُ المُطَّلِب** وأخذَ **عَبْدَ الله** بين ذِرَاعيهِ ، وراحَ يَبْكى فرحاً والقومُ من حَولِه فَرِحِينَ مَسرُورِينَ بنجاتِه من الذَّبْحِ .. ثم قرَّرَ عبدُ المُطلب أن يجعلَ الفَرْحَةَ فرحتين فَخَطَبَ لعبدِ اللهِ فتاةً جَمِيلةً من قَبِيلةِ **بنى زُهْرَةَ** أعلى بيوتِ

قُريْشٍ مكانةً اسمها « آمنةُ بنتُ وَهْب » ولما ذَاعَ خَبَرُ زواجِ **عبْدِ الله** من **آمنةَ بنتِ وَهْب** حَزِنت نساءُ مكةَ ، فلقد كانت كُلُّ واحدةٍ منهن تتمنَّى الزوَاجَ من عَبْد اللهِ وكُنَّ يُجْمِعْنَ على أَنَّ عَبْدَ اللهِ فيه سرٌ . . نعم فيه سرٌ . . . فيه نُورٌ وبَرَكَةٌ وكُنَّ يُدْرِكْنَ بقلوبِهِنَّ وأبصارِهِنَّ هذا النورَ العجيبَ الذى ينبثقُ منه أينما حَلَّ . . ولم يكن أحدٌ يعرِفُ أنَّ هذا النورَ هو «**محمدُ ابن عبدِ الله** » الذى ما زَالَ فى صُلبِ أبيه . . .

وبعدَ الاحتفالِ بالزفافِ ذَهبَ العروسانِ **عبدُ الله وآمنـةُ** إلى مِنَى « حيثُ الجَوُّ النَّقِيُّ والفَضَاءُ والسُّكُونُ » ، وهناك حَمَلَتْ آمِنَةُ بسَيِّد الخَلْقِ **محمدِ بنِ عبدِ الله** » .

* * *



مَولِدُ الرَّسُولِ وَطفُولتُه



بَعْدَ أَنْ تَزَوَّج « عبدُ الله » من « آمِنَة بِنْتِ وَهْب » ومكث معها عِدةَ شهورٍ ، جاءَ دَوْرُهُ ليسافرَ إلى بلادِ الشاَّمِ للتجارةِ كما هى العادةُ فى هذه البيئةِ الصحراويةِ ، ولم يَشَأْ « عبدُ الله» أن يعتذرَ عن هذه الرحلةِ حتى لا يُقَالَ عنه إنه مُدلَّلٌ بحكمِ كَوْنِه ابناً لسيِّد قُرَيْشٍ ، ولا شك أنه سيأخذُ فُرْصَةً للفرحَةِ بعَروسِه . . . لذا قرَّرَ «عبدُ الله » السفرَ فى هذه الرحلةِ إلى الشامِ . . وَوَدَّعَ « آمِنةَ » ثم تركَهَا تُقاسِى مَرارَةَ الفِراقِ والوِحْدَةِ التى جاءت مبكرةً على غيرِ انتظارٍ .

وفى الطَّرِيقِ إلى الشَّامِ عانَى « عبدُ اللهِ » أشدَّ المعَانَاةِ من شِدَّةِ الحرارةِ وَوَهَجِ الصَّحَرَاءِ طِوَالَ الطَّرِيقِ ، ولكنه صَمَدَ وحَاوَلَ التماسُكَ حتى وَصَلَتْ القافلةُ إلى أَسْوَاقِ الشَّامِ ، فأخذَ « عبدُ الله » يبيعُ ويشترى دونَ أدنى قِسْطٍ من الرَّاحَة ، كان يريدُ أن يُنهى المَهَمَّةَ سريعاً حتى يَعُودَ إلى عَرُوسِه . . وفى أَثْناءِ العَوْدَةِ شعَرَ «عَبْدُ الله » بنوعٍ من الدُّوارِ والهبوطِ ، وراحَ يَتَحَامَلُ على نَفْسِه ، ولكنَّ جَسَدَه أخَذَ يرتعشُ ويتصببُ عرقاً وتغيَّرَ لَوْنُه فأصْبَحَ شدِيدَ الشُّحُوبِ فقَرَّرَ القَوْمُ

الالتِجَاءَ إلى « يثْرِبَ » حتى يُعَالجَ «عبْدُ اللهِ » عند أخْوَالِه ثم عادَت القافِلَةُ إلى مَكَّةَ .

وعِندَما اقتربَتْ من مَكَّةَ خَرَجَ شَبَابُ القَبَائِلِ ونساؤُها وشُيوُخُها وأَطْفَالُها لاستقبالِ العائِدِينَ ، وراحَ الأطْفَالُ يصعَدونَ شُرُفَاتِ المنازِل ، ويتسلَّقوُنِ رُؤُوس الجِبَالِ حتى يَرَوْا عودةَ الآبَاءِ والإِخْوَانِ . . أما «عَبْدُ المطَّلِب» فقد جلسَ فى دارِ النَّدْوَةِ متلهِّفًا على ولَدِه «عبْدِ الله» تَعْتَصِرُه أنواعٌ من القلَقِ والهواجِسِ ، ويحاولُ تهدئَةَ نفسِه ، وراحَ يتطلعُ إلى أخبَار العائدينَ . . .



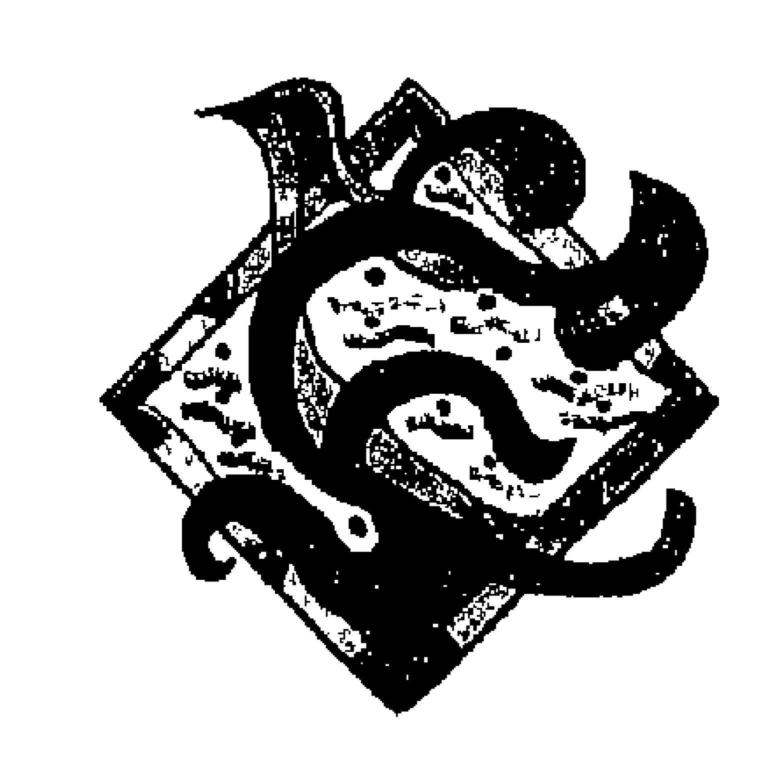
وعندما دَخَلَتْ القافِلةُ مكَّةَ أَحَاطَ بها الشبابُ والكهولُ والنساءُ ، وارتفعت الزغاريدُ وعانقَ كلُّ أبٍ ابنَه ، وكلُّ أختٍ أَخَاها . . وأَخَذَ «عبْدُ المطَّلِب» يتفرَّسُ الجميعَ بحثًا عن ولدِه عبدِ الله . . . فلم يجدْهُ .

تَمالَكَ زِمَامَ نَفَسِه وسَألَ عنه . . فَقَالُوا : مريضٌ عند أخوالِه فى يَثْرِبَ . .

وفى الحالِ أمرَ «عبْدُ المطَّلِب» ابنَه الحارثَ بالتوجهِ إلى يثربَ ليطمئنَّ على أَخِيهِ ويُحْضِرَهُ مَعَه حتَّى يُوالىَ عبدُ المطَّلِبِ عِلاَجَه بنَفْسه . . وبالفِعْل توجَّهَ الحَارِثُ إلىَ « يثربَ » ولكنهُ ما إنْ

وَصَلَ إليها حتَّى رأى علامَاتِ الحزْنِ والأسَى تُحِيطُ الجميعَ . . فعرفَ أنَّ أخاهُ عبدَ الله قد ماتَ . . فَعَادَ إلى مَكَّةَ زائغَ العيَنْينِ . . مُنكَّسَ الرأسِ ، شاردَ الذِّهْنِ « لا يعرفُ كيفَ يُخْبرُ أَبَاه » . . . وماذا يُمكنُ أن يُقال ؟

وعندما وصلَ الحارثُ إلى مكةَ كانت شفتاه قد أصَابهمَا التشقُّقُ وكان وجهُهُ مُسْوَدًّا وشعرُهُ ثائرًا وعيناه حَمْرَاوَيْن زائغتين. فما إنْ وقعت عينا عبدِ المطَّلِب عليه ، حتى اضطرَب اضْطِرابًا شديدًا ودقَّ قلبُهُ دقاتٍ كادَ يسمعُها وأدركَ أن ولدَه الحبيبَ قد ماتَ . . . فَفَرَّ إلى الكَعْبةِ وراحَ يطوُف بها يضربُ كفًا على كفٍّ . . بينما راحت الدموعُ تنهمرُ من عَيْنَيهِ وهو يرُددُ : فِيمَ إذن كان الفداءُ ؟ فِيمَ إذن كان الفداءُ ؟ كيف . . ؟ كيفَ نَجَّى الله عبْدَ اللهِ بالأمْسِ ليتَزَوَّجَ ثم يَمُوت؟ ففيمَ الفداءُ إذن ؟ . . . وفجأةً تذكَّرَ آمِنَةَ بنتَ وهبٍ ، وكيف تنتظرُ عريسَها في شوقٍ كبيرٍ وأخذَ يفكرُ كيف يُخبِرُها ؟ وماذا يَمْكِنُ أن يقولَه لها ليواسِيَهَا ؟ .



اتَّجهَ عبْدُ المطَّلِبِ إلى بيتِ آمنةَ ومعه بَعْضُ الرِّجَالِ وعندما رأتْهُ قادمًا لا تكادُ قدماه تحمله والوجوهُ مُصْفَرَّةٌ . . مادَتْ الأرضُ من تحتِ قَدَمَيْهَا ووضعت يدَها على قلبها حتى

المولد النبوىّ



خَافَ الجَميعُ على آمنة فى حملِها لشدةِ حُزْنِها ، ولكنَّ آمِنَةَ لم يَسْتَمِر الحزْنُ مَعَها طَوِيلاً ، فَقَدْ أَحَسَّتْ بالسَّكِينَةِ تُسْكَبُ فى قَلْبِها ، وذَاقَت طَعَمَ الطُّمأنينةِ والرضا بقضاء اللهِ ، وكانت كلما تحسست بطنَها بِيَدِها شعرت بفرْحَةٍ عَجِيبةٍ تتملَّكُها . . . بل إن الهواتِفَ كانت تأتِيها بالبُشْرَيَات . . وفى إحْدَى اللَّيَالِى سَمِعَتْ وهى بينَ النوْمِ واليقظةِ هاتِفًا يقولُ لها : لقد حَمَلْتِ بسيِّد هذه الأمَّةِ . . . ثم سمعت مرةً أخرى هاتفًا يقولُ : لقد حَمَلْتِ بسيِّدِ الخلقِ ، فَسَمِّه مُحَمَّدا . . . وعنْدَئِذٍ كَتَمَتْ آمنةُ أمْرَها . . وخافتْ على جَنِينِها من الحَسَدِ فلم تُخبِرْ صُوَيْحِباتِها . . وعندما حانَ موعدُ وِلادتِها رأتْ فيما يَرَى النائِمُ أَنَّ نُورًا قد خرجَ منها فأضاءَ ما بينَ المشرق والمغربِ ، ولم تشعرْ بمتاعِبِ الوِلادَةِ كالأمهاتِ الأخرياتِ . وكأن ملائكةً كِرامًا وَأَرْوَاحًا طيِّبةً تحوطُ بها من كلِّ جانبٍ . . ثم وضعت آمنةُ ولدًا . . . ومن عجيب الأمْرِ أَنَّه كان مَخْتُونًا ثم وقعَ على الأرضِ معتمدًا على يديْه رافعًا رأسَه إلى السَّماءِ . . وكَانَ ذَلِك فى يوم الاثنين الثانى عشرَ من شهرِ ربيعٍ الأول

والعاشرِ من أغسطس سنة ٥٧٠ م ، وكان هذا العامُ هو عامُ الفِيلِ .

طَارَ الخبَرُ إلى جدِّهِ عبدِ المطَّلِبِ الَّذى أَتَى مُسْرِعًا ، وما إن وقعَ بَصَرُهُ على الطِّفْلِ حتَّى حملَهُ بين ذراعيْهِ وحمدَ الله (وراحَ يدعو الله له) ثم انطلقَ بِهِ إِلى الكَعْبةِ وهُوَ يَضُمُّه إلى صدرِهِ ويَدْعو له ويحمدُ الله .

* * *

كان يهودُ يثْرِبَ يَتَنَبَّئُون بظهورِ نَبِيٍّ يهدِى الناسَ إلى النورِ يَنْضَمُّون إِلَيْه ويَنْصُرُونَه ويُبَاهون به . . . وكانُوا يُرَدِّدُونَ أَنَّ هذا زَمَانُهُ وأَنَّهم فى انتظارِ اليومِ الذى يولَدُ فيه .

وفى نفسِ اللَّيْلةِ التى وُلِدَ فيها مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ . . . سمعَ عبدُ المطَّلِب صوتًا يشقُّ سكونَ الليلِ . . . يُنادِى . . .

ـ يا مِعشَرَ يَهُود . . . يا مَعْشرَ يَهُود . . أنا راصدُ النُّجوُمِ محلُّ ثِقَتِكُم بعلمى وجَهْدِى . . . اسْمعَوا ما أَقُولُه لكم . . . اللَّيلةَ رأيتُ نجمًا لم أرَهُ من قبلُ . . . فاجتمع الناسُ حولَه وسألوه وما معنى ذلك ؟

قَالَ وهُو يَكَادُ يطيرُ فرحًا وشوقًا .

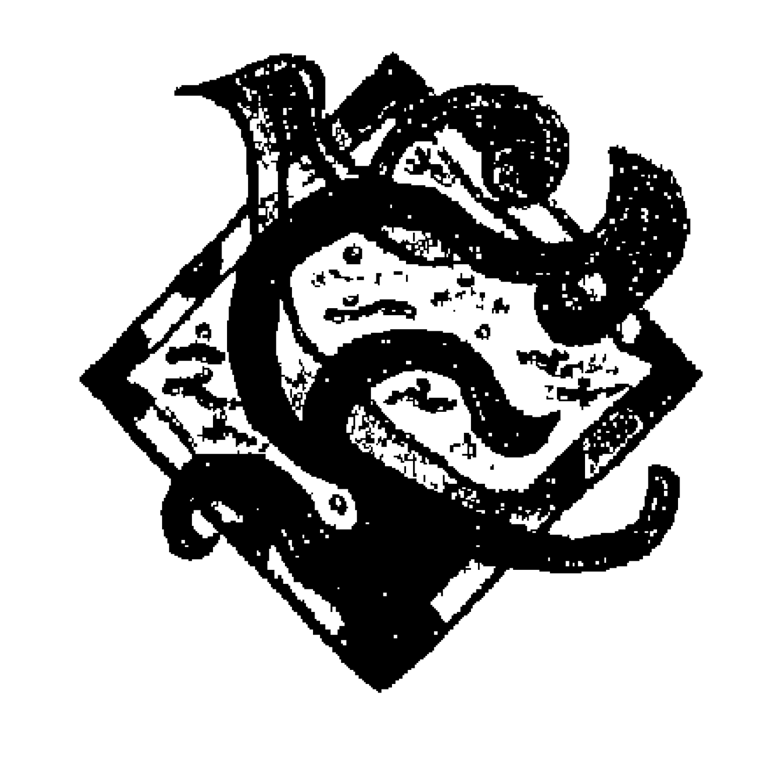
معنى هذا أنه وُلِدَ فى هذه الليلةِ نبىُّ هذه الأمةِ . . طلعَ نَجمُ أَحْمَدَ . . . طلعَ نَجمُ أَحْمَدَ . . .



وراحَ اليهودىُّ يَمُرُّ على كلِّ البُيُوتِ ليسأَلَ من وُلِدَ له الليلةَ وَلَدٌ ؟ . . . من وُلِدَ له اللَّيلةَ وَلَدٌ ؟

فخافَ عبدُ المطَّلِب على حفِيدِه . . وأرسلَ إلى آمنةَ أن تكتمَ خبرَ ولادتِها . . ولما كان اليومُ السابعُ وهو يومُ العقِيقَةِ عندَ العَرَبِ ، ذَبَحَ عبدُ المطَّلِبِ جملاً وأطعمَ المساكِينَ والفقَراءَ . . . ودَعَا القوْمَ إلى حَفْلِ عَشَاءٍ . . وأرادَ عبدُ المطَّلِبِ أن يُسَمِّىَ المولودَ « قثم » لأنه كان عنده ابنٌ بهذا الاسْمِ ثم ماتَ وهو ابن تِسْعِ سَنَواتٍ فقالت له آمنةُ :

ـ لقد أُمِرْتُ فى مَنَامِى أن أُسَمِّيَه مُحَمَّدًا . . .



فقال عبدُ المطلب :

ـ هذا اسْمٌ مُبارَكٌ لِيحْمَدَهُ اللهُ فى السماءِ ، ويَحْمَدَهُ الخَلْقُ فى الأَرْضِ .

نَامَتْ مَكَّةُ كلُّهَا سعَيدةً بِهَذِه العقِيقَةِ ، ولم يَكُنْ أحَدٌ يَدْرِى أن هذا الطفلَ هو دعوةُ إبْرَاهِيمَ ونُبُوءَةُ مُوسى . . . وترنيمةُ داوودَ . . . وبشارةُ عيسى عليهِمُ أفضلُ الصلاة والتسليمُ . . .

فلقد دَعَا إِبْرَاهيمُ ربَّه وهو يَبْنَى الكَعْبَةَ . .

﴿رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً منهم يَتْلُوا عليهم آياتِكَ



رَحِيلِ المَرْضِعَاتِ وقد أخذتْ كلُّ مِنْهنُ طِفْلاً من أَطْفالِ الأغْنِيَاءِ . كانت هناك مُرْضِعَةٌ تُدْعَى « **حَلِيمةَ السَّعْدِيةَ** » وقد قَدِمَت من البادِيةِ ومَعَها زَوْجُها وطِفلُها الرَّضِيعُ . . وكان مظهرُها يَدُلُّ على شِدَّةِ الفَقرِ والجوُعِ ، وكان طِفْلُها لا يكفُّ عن البُكَاءِ وقد ظهرَ عليهِ الضَّعْفُ والهُزَالُ . . أما زَوْجُها فقد جاءَ معها على ناقةٍ ضامِرَةٍ مُسِنَّة وقد جفَّ اللبنُ من ضِرْعِها ، فلم تَشَأْ أىُّ أمٍّ أن تُعْطِيَهَا طِفْلهَا . . وعِنْدَما همَّتِ القوافِلُ بالعَوْدَةِ قال زوجُ حَليمةَ لها :

ـ ما بَالُك يا حَلِيمَةُ ؟ لقد عُدْتِ وَحدَكِ بلا طفلٍ . .

قَالَت : هَذَا هُوَ حظِّى لَقَدَ رَفَضَ السادةُ إِعْطَائِى أطْفَالَهم اللَّهُمَّ إلا أرْمَلةً صغيرةً . . ولَكِنَّنِى خَشِيتُ أن آخُذَ وليدَها فَمَاذَا يُمْكِنُ أن تَدْفَعَ لنا أرْمَلَةٌ ؟

ثم طَأْطَأَتْ حَلِيمَةُ رأْسَها وقَالَت : ولكِنَّ الحقِيقَة أَنَّ قَلْبِى قد تَعَلَّقَ بِهذَا اليتَيِم مُنْذَ أَنْ وَقَعَ بَصَرِى عليه . . . هل تُصَدِّقُ أَنَّ ثَدْيِى قد حَنَّ إِلَيْه ؟

قَالَ لها زَوْجُها الحارِثُ :

ـ إذن اذْهَبى فَخُذِيه لعلَّ اللهَ يُبارِكُ لنا فِيهِ .

وما إِنْ سَمِعَت حَلِيمَةُ هذا الكلامَ حتى أسْرَعَتْ وطلبت



الطِّفْلَ من « آمِنَةَ » فَأَعْطَتْه لها . . . وما إِنْ حَمَلتْ حَليمَةُ مُحَمَّدًا بين يديها ، حتى صَمَتَ صُرَاخُ طِفلِها . . . فقالت حليمةُ : مَادَامَ ابْنى قد هَدَأَ فَلأُ رْضِعْ مُحَمَّدًا أَوَّلاً . . . وما إِنْ وَضَعْت ثَدْيَها فى فَمِه حتى تَدَفَّقَ اللبَنُ غَزِيرًا ، فَشَرِبَ مُحَمَّدٌ حتَّى ارتوى ، ثم أَخَذَتَ ابنَها وَأَرْضعَتْه حتى ارتوى هو الآخَرُ . . . فشعرت بالجوُعِ فَسَأَلتْ زوْجَها أَنْ يُحاوِلَ حَلْبَ ضِرْعِ النَّاقَةِ . . . .

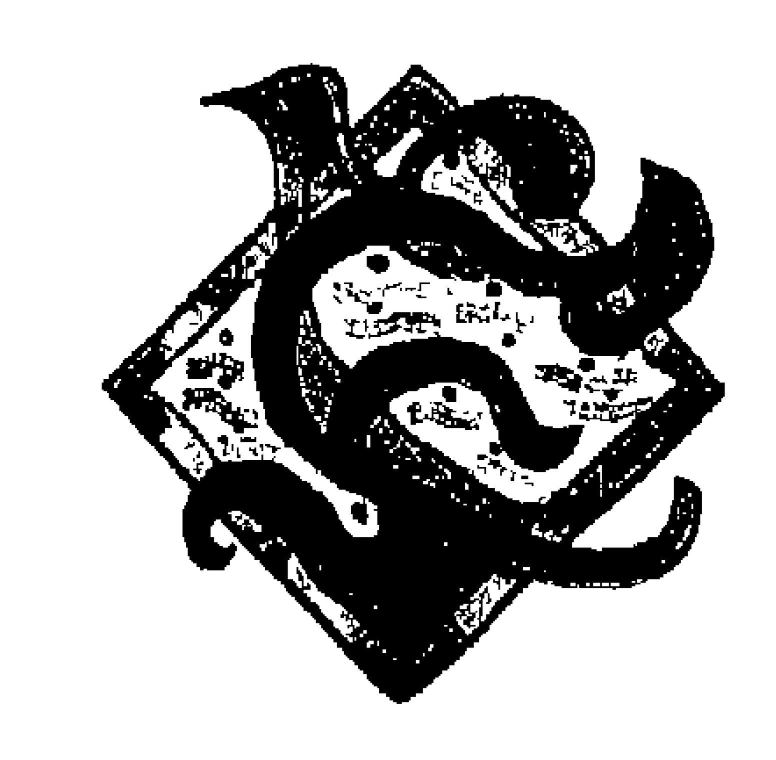
فما كاد الحارِثُ يُمْسِكُ بالضِرْعِ حتى انْهَمَرَ منه اللبنُ بشدةٍ لم يسبقْ لها مِثيلٌ . . . فَشَرِبَ وشَرِبْت حَليمةُ حتى ارتَوَيَا . . . وهمسَ الحارثُ إلى زَوْجَتِهِ قَائِلاً :

هل تَشْعُرِين كما أَشْعُر . . إننا قد أخذْنا نِسْمَةً مُبَارَكةً ؟

فَكَتَمَتْ حَلِيمَةُ فَرْحَتَها وضَمَّتْ مُحَمَّدًا إِلى صَدْرِها وقَالَتْ :

ـ أشعرُ بذلك من اللَّحْظِة الأولى . .

وانطلقَ الرَّكْبُ . . . فإذاَ بحِمارِ حَلِيمَةَ الهزيلِ الَّذى كان موضعَ سخريةِ صاحباتِها . . . يجرى حتى سَبَقَ الرَّكْبَ كلَّه . . . وإذا بِنَاقَة زَوْجِها يَشْتَدُّ عودُها فتنطلقُ كالسَّهْمِ حتى كان ذلك المشهدُ مثارَ حديثِ أَهلِ القافلةِ كلِّها . . .



فى البادية



انهالَتْ البَرَكَاتُ والخَيْرَاتُ على حَليمَةَ فى كُلِّ شَىءٍ بِبَرَكَةِ هذا اليتيمِ . . . أغنامُها العِجَافُ النحيفَةُ صارت نشيطةً تَرُوحُ وتجيءُ فى المراعِى وقد امتلأت لحْمًا ولَبَنًا . . . حتى أَنَّ بَقِيَّةَ القبائِل ظَنَّتْ أَنَّ حَلِيمَةَ تُرْسِلُ أغْنَامَها إلى مَرَاعٍ خَاصَّةٍ لا تُخْبِرُ بها القَوْمَ ، فَأَمرُوا صِبْيَانَهم أَنْ يَذْهَبُوا بأَغنَامِهم إلىَ حَيْثُ تَذْهَبُ أغنَامُ حَلِيمَةَ . أَمَّا ابْنُ حَليمَةَ فَقَدَ أَصْبَحَ يَرْضَعُ بِهُدُوءٍ وينْمُو جِسْمُهُ بِسُرْعَةٍ . . فَكَانَتْ حَلِيمَةُ تردِّدُ هى وزَوْجُها أَنَّ هذَا اليتِيمَ نِعْمَةٌ وبَرَكَةٌ . . لا تُعادِلُها بَرَكَةٌ وأَنَّ فيه سِرًّا لا يُخْطِئُهُ ذو بَصَرٍ وبَصِيرَةٍ .

وعِنْدما بَلَغَ مُحَمَّدٌ العَامَيْن كان على حَلِيمةَ أَنْ تَفْطِمَهُ وتُسَلِّمَهُ إلى أُمِّهِ . . . ولكنَّ حَليمَةَ كَانَتَ قَدْ ارتَبَطَتْ بهذا الطِّفْلِ وتَعَلَّقَ قلْبُها به . . . ولَمْ تَتَصَوَّرْ فِراقَه . . . وراحَتْ تُجاهِدُ نَفْسَها وتَعُدُّ العُدَّة لتَسْلِيمِهِ إِلى أُمِّهِ فى مَكَّةَ . . ولاحَظَت أَنَّ زوجَهَا يُعانَى نَفْسَ المَشَاعِرِ . . لكن لا حِيلَةَ لها ، فقد بَلَغَ الطِّفْلُ عَامَيْن اثْنَين وتم فِطَامُه . . . ذَهَبَتْ حَليمَةُ ومعها مُحَمَّدٌ إلىَ مَكَّةَ ، وما إِنْ وقَعَت عَينا أُمِّهِ آمِنَةَ

عليه حتى انْطَلَقَتْ تَحْتَضِنُه وتُمْطِرُهُ بِقُبُلاَتِها وتَعَجَّبَتْ من شَكلِه وهيئتِه وقالت لحِليمَةَ :

كَيْفَ أَصْبَحَ مُحَمَّدٌ بعدَ عامَيْنِ وكأنه ابن أَرْبَعةِ أعْوَامٍ ؟

قَالَت حَليمَةُ :

ـ إن هواءَ الصَّحَراءِ النَّقِىَّ . . وسُكُونَ المَكَانِ . . واعْتِدَالَ المنَاخِ هُوَ الَّذِى ساعد فى نُموِّهِ سِرَيعًا .

ثم أَطْرَقَت قَليلاً وقَالَت راجِيَةً :

ـ لَيْتكِ تترُكِينَه لى سَنتَيْن . . إِنى أَخَافُ عليه من انتِشَارِ الوَبَاءِ فى مكةَ . . خَافَتْ آمِنَةُ على صَغيرِها . . . وضَمَّتْه إلى صَدْرِها ثُمَّ قَالَت :

ـ فليَمْكثْ معنا بِضْعَةَ أيامٍ ، ثم يَعُود مَعك إلى البَادِيةِ حتى يَشْتَدَّ عُودُه ويَقْوَى ويكونَ الوباءُ قد ذهبَ من مكةَ . .

فَرِحَتْ حَليمَةُ وقَرَّتْ عينُها . . . وبعد أَيَّامٍ عَادَتْ بِه إِلىَ البَادِيَة .

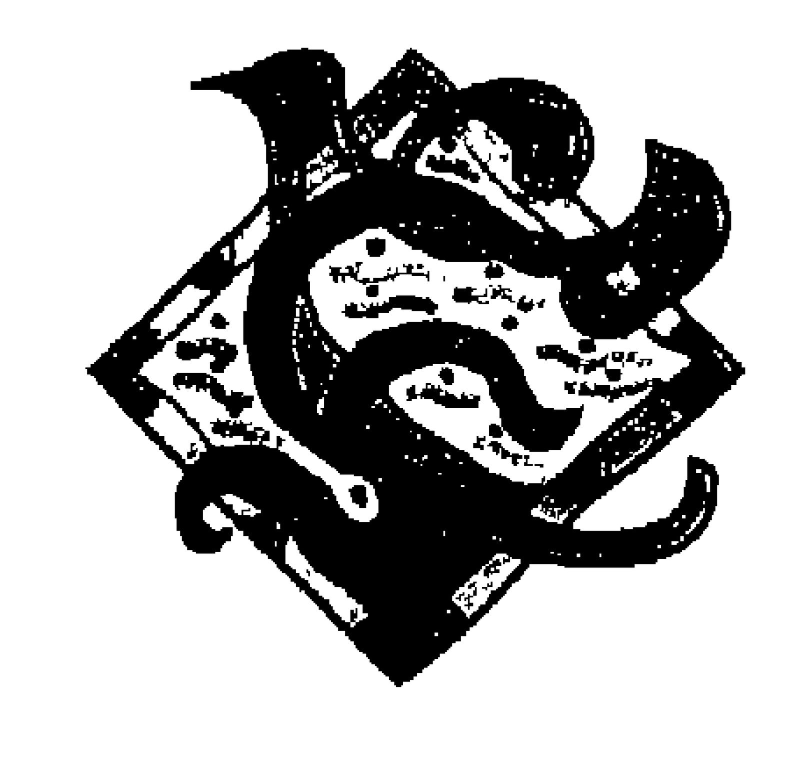


الشَّيْمَـــــاءُ



فَرِحَت الشَّيْمَاءُ بنتُ حَلِيمةَ السَّعْدِيَّة بِعَوْدَةِ مُحَمَّدٍ
البَادِيَة ، وفَرِحَ الطِّفْلُ مُحَمَّدٌ بِالعَوْدَةِ إلى الفَضَاءِ الَّذِى لاحُ
له . . وكان قد أَلِفَ البَسَاطَةَ والحُرِّيَّةَ والانْطِلاَقَ حيث كا
أختُه الشَّيْمَاءُ تأْخُذُهُ مَعَها إلى المَرَاعِى وتَتْرُكُه يُلاَعِبُ الخِرَ
والنِّعَاجَ ويَجْرِى خلْفَها بِعِصِىٍّ صَغِيرَةٍ . . بينما تَغُوصُ قَدَ
الصَّغِيرَتَان فى الرِّمَالِ . . فَيَقِفِ ويَسْقُطُ وكُلَّما جَرَى خَلْ
الخِرَافِ جَرَتْ أَمَامَه فَيَسْقُطُ على الأرْضِ ضَاحِكًا ببرا
فَتَفْتَحُ الشيماءُ ذراعيْها له لكىْ يرتَمِىَ بين أَحْضَانِها فتضُمُّهُ
صَدْرِها وتدور به حتى تَزِيدَ من ضَحكَاتِه . . وإذا اشتَدَّ
حَرَارَةُ الشَّمْس أجْلسَتْهُ فى ظلِّ شَجَرَةٍ وَرَاحْت تَبْنِى لَهُ بُ
من الرِّمَالِ والحَصَى وهو يراقُبها مَسْرُورًا بقُدْرَتِها سَعِيدًا بالهَ
والحُرِّية . . . وتبدأُ هى فى مُنَاولتِه مَا لَذَّ ومَا طَابَ من الثَ
وكِسَرِ الخُبْزِ واللَّبنِ . . فَيَأْكُلُ بِشهِيَّةٍ هو وأَخُوه وعندما تَ
الشمسُ فى الغُرُوبِ يتَّجِهُ الرَّكْبُ عائِدًا إلى البَيْتِ . . حَ
تكونُ حَلِيمَةُ فى انْتِظَارِهِم حتى تَطْمَئِنَّ عليهم جميعًا وخَا
عَلى مُحَمَّدٍ الَّذِى كان قَلبُها مَشْدُودًا إليه بِطَرِيقةٍ غَيْرِ عَادِيَّة

شــــقُّ الصــــدْر



كانَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ مُرْضِعَةُ مُحَمَّدٍ شَدِيدَةَ الخوْفِ واللَّهْفَةِ عَلَيْه ، كَانت تَشْعُرُ أنهُ طِفْلٌ ليسِ كَبقِيَّةِ الأطْفَالِ . . فيه بَرَكَةٌ . . فِيه شَيْءٌ مَا لاتَعْرِفُ كَيْفَ تُعَبِّرُ عنه . . وهذا الشَّيءُ يَجْعلُها شَدِيدَةَ التَّعَلُّقِ به والحِرْصِ عَلَيه . . كَانَتْ تُلاحِقُهُ بعينَيهَا دائمًا . . وعندما يخرجُ مع إخْوتِهِ لِرعَيِ الغَنَم تَشْعُر بالخَوْفِ وتظلُّ تَرْقُبُ لَحْظَةَ وُصُولِه إلى البَيْتِ . . . وَأَحْيَاناً كَانَتْ لا تَطِيقُ صَبراً فَتَنْطَلِقُ إلى المراعِى . . وما إنْ تَقَعُ عَيناها عليه حتىَّ تَهْدَأَ ثُمَّ تَعُود إلى بَيْتِها لإعْدَادِ الطَّعَامِ ، وظَلَّ الحالُ هكذا إلى أن بَلغَ أَرْبَعَ سنينٍ ، وفى أحَدِ الأيَّـام بينما كَانَتْ تَقُومُ بِبَعْضِ الأعْمَالِ المنزْلِيَّة أقبلَ عليها ولَدُها صائحاً: أخِى القُرَشىُّ قُتِل . . . أخى القُرَشِىُّ قُتِلَ . . . فانخلعَ قلبُ حليمة وسَألَتْه بأنْفَاسٍ مخنوقةٍ كيف ؟ وأين ؟ ثم انْطَلَقَتْ إلى المراعِى وَهِىَ تَصيحُ وَلَدِى . . وَلَدِى مَاذَا بِكْ ؟ أَأَنْتَ حىٌّ ؟ أَأَنْتَ بِخَيْرٍ ؟ وراحَتْ تُقَلبُ فيه كالمجْنَونة وتَبْكى . . فقالَ لها الطفلُ : لا شَىءَ يا أُمَّاه . . لا شَىَءَ . . غَيْر أَنَّ . . قَالَت مَلْهُوفةً : غَيْرَ أَنَّ ماذا ؟ . . . ماذا جَرَى ؟

قالَ لها : بينمـا كُنْتُ أَلْعَـبُ مع الصِبْيَانِ ونتَقَاذَفُ البَعْـرْ أَتَانِى جَمَاعَـةٌ مِـن النَّـاسِ . . ثَلاَثَةُ أَنْفَـارٍ يَلْبَسُـونَ مَلاَبِسَ بَيْضَاءَ ، وكان مَعُهم طِسْتٌ يَلْمَعُ فيه ثَلْج ، وقد أخذَنى واحدٌ منهم وأرقدَنِى على الأرْضِ وشقَّ صَدْرِى حتى آخِرِ بَطْنِى ثُمَّ أَخْرَجَ أَحْشَائِي وغَسَلَها بالثَّلجِ ثم أَعَادَهَا إِلىَ بَطْنِى . . . ثم جَاءَ الرَّجُلُ الثَّانِي ، وأخْرَجَ معه خاتماً كأنَّه النورُ خَتَمَ به عَلىَ قَلبْى . . أمَّا الرَّجُلُ الثَّالِث فَأَغْلَقَ الشَّقَّ الذى فى صَدْرِى وبَطْنِى ، قَالَتْ الأمُّ فى ذُهُولٍ ثُمَّ مَاذَا ؟ قال : ثُّمَ أَخَذُوا يَزِنُونَنِى على مِيزَانٍ مَرَّةً بِعَشْرَةِ أَنفْاَرٍ ، ومرَّةً بمائِة نَفَرٍ ثُمَّ قَالُوا كَلاَماً عجِيباً . . قالوا : إننى لوْ وَزَنُونِى بالنَّاسِ جميعاً لرَجَحْتهُم . . ثم تَرَكُونى وانْصَرفوُا الآن فَقَط . . انْظُرِى ياأُمَّاه إنهَّم يَنْصَرِفُون . . نَظَرَتْ حَلِيمَةُ إِلَيْهِ جَزِعَةً فَزِعَةً وظَنَّتْ أَنَّه يهَذِى ، وراحتْ تَجُسُّه بِيَدِها فَقَالَ لها النَّاسُ الذين اجْتَمَعُوا حَوْلَهَا : لا شَكَّ أَنَّ الطِّفْلَ قَدْ أَصَابَهُ مَسٌّ من الجِنِّ . . لابُدَّ أَنْ تَذْهَبِى بِهِ إِلىَ كَاهِنِ اليَهوُدِ حتىَّ يُدَاوِيَه . . ونَظَرَتْ حَلِيمَةُ إِلىَ مُحَمَّدٍ فَلمْ تَرَ أَثَرَاً لِشَقٍّ صدْرِه أو بطِنِه . . فَبَكَتْ على طِفْلِها الحبِيبِ الذى أَصَابَهَ مَسٌّ من الجِنِّ وانْطَلَقَتْ بِهِ إِلىَ الكَاهِنِ .



وقَالَ الكَاهِنُ : دَعُوا الطِّفْلَ يَتَكَلمُ حتىَّ أَفْهَمَ مِنْه هُوَ . . وَراحَ مُحَمَّدٌ يَحْكِي لِلْكَاهِنِ كلَّ ما جَرَى له . . . وفَجْأَةً انْتَفَضَ الكَاهِنُ واقفاً ونَادَى بِأَعْلَى صَوْتِه . . . يا لَلَعْرَب . . يَالَلَعَرب . . . اقتُلُوا هَذَا الغُلاَمَ . . اقْتلُوا هذا الغُلاَمَ . . يالضَيْعَة اليَهُودِ . . . يا لَخَسارَة اليَهُودِ . . لَئنْ تَرَكْتُم هَذَا الغُلاَمَ لَيُذِلَّنَّ اليهَودَ . . . ولَيَأتِيَنَّ بِدينٍ جَدِيدٍ . . وجَذَبَ الكَاهِنُ الصَّبىَّ مُحَمَّدًا وَحَاوَلَ أَنْ يَخْنُقَه . . . فانْكَبَّت حَلِيمَةُ بكلِّ قُواها تُخَلِّصُ ابْنهَا . . . وانتزعتْه من بَيْنِ يَدَىْ الكَاهِنِ بصُعُـوبَةٍ . . وفَـرَّتْ بِهِ عَـائِدَةً إِلَى بَيْتهـا ، وَهِي مَذْعوُرَةٌ تَرْتَجِفُ . . . بَيْنَما سَقَطَ الكَاهِنُ على الأَرْضِ فى حَالَةٍ أَشْبَه بالصَّرَعِ . . وهُوَ يُرَدِّدُ يا لضيعَة يَهُود . . . يالضيعَة يَهُود .

عادَ الطِّفْلُ إِلىَ بَيْتِ حَلِيمَةَ مُفْزَعَ الفُؤادِ . . بينمَا رَاحَتْ حَلِيمَةُ تُقْسِمُ أَغْلَظَ الأَيمَانِ أَنها لاَ ولنْ تُخْرِجَ مُحَمَّدًا خارِجَ المنْزِلِ قَطْ وَأَنَّه سَيَظَلُّ مَحْبوَساً حتىَّ تَحْضُرَ أُمُّه لِاسْتِلاَمِهِ . . . وَباتَتْ حَلِيمَةُ واجِفَةَ القَلْبِ مهزُوزَةَ الأَعْصَابِ مُتَخَوِّفَةً مِنْ كُلِّ شَيءٍ وراحَتْ تَسْتَرْجِعُ هِىَ وزَوْجُها مَا رَوَاه الطِّفْلُ . . وما جَرى لِلْكَاهِنِ حِينَ سمِعَ الطِّفْلَ . . وازْدَادَ خَوْفُها ثم قرَّرَتْ هِى وَزَوْجُها إِعَادَةَ الطِّفْلِ إِلَى أُمِّهِ فى مَكَّةَ . . وتَحَرَّكَ الثَلاَثَةُ تَحْتَ ظَلاَمِ اللَّيْلِ مُتَّجِهِينَ إِلَى بَيْتِ آمِنَةَ . . وعندما رأَتْهُم آمِنَةُ تَعَجَّبَتْ وَسَأَلَتهما لِماذَا أَحْضَرْتُما الصبىَّ ؟



قَالَتْ حَلِيمَةُ . . لا شَىءَ لَقَدْ بَلَغَ الرَّابِعَةَ من عمرهِ . . وقد سَبَقَ أَن اتَّفَقْتُ على رَدِّهِ حِينَ يَبْلُغُ الرَّابِعَةَ . . وهَذَا هُوَ ابنُكِ سليماً مُعَافَى أَمَامَكِ . . .

قَالَتْ آمِنَةُ : لا وَ اللهِ إنَّ فى الأمْرِ شيئًا تُخْفِيَانِه . . وَرَاحَتَ تَرْجُوهُما أن يَقُصَّا عَلَيها كلَّ شىء . . .

وحَكَت حَلِيمَةُ كُلَّ ما حَدَثَ بالضَّبْطِ . . فَرَكَعَتْ آمِنَةُ على رُكْبَتَيْها أَمَامَ الصَّبِى محمدٍ واحتَضَنَتْه وقَالَت :

« واللهِ إنَّه لكائنٌ لِوَلَدِى هذا شَأْنٌ وَأَىُّ شَأْنٍ » .



مـوتُ آمِنَـــةَ



عاشَ مُحَمَّدٌ فى مَكَّةَ بَيْنَ أَحْضَانِ أُمِّه التى غمرَتْه بالحُبِّ والحنَانِ . . وبَدَأَ يَتذوَّقُ الحَيَاة فى مَكَّةَ . . وَينْظُرُ إِلىَ البُيُوتِ المتَلاَصِقَةِ المبنِيَّة بالحِجَارَةِ . . . والنَّاسِ المتَزَاحِمِين باللَّيْلِ والنَّهَارِ . . . وَلَمْ يَكُنْ بالطَّبْعِ يتَمَتَّعُ بِحرِّيَّةِ الخُرُوجِ إِلى الهَوَاءِ حَيْثُ الانْطِلاَق فى المرَاعِى والبَسَاتِينِ كما كَانَ الحَالُ فى يَثْرِبَ . . بَلْ كَانَ يَخْرُجُ مع أُمِّه لِشِرَاءِ بَعْضِ الحَاجَاتِ وهى تُمْسِكُ بِيَدِهِ الصُّغْرَى وتَضْغَطُ عَلَيْها حَتىَّ لا يَنْفَلِتَ مِنْها فى الزِّحَام . . وكَانَتْ أُمُّه تُشِيرُ بِيدِها إِلى مَعَالِمِ مَكَّةَ . . . فَهذِه هِىَ الكَعْبَةُ التَّى يَحُجُّ إِلَيْها النَّاس كلُ النَّاسِ فى كِلِّ عَامٍ من كُلِ مَكَانٍ ، وهَذَا هوُ صَحْنُ الكَعْبةِ . . وهَذه زَمْزَمُ . . . وهؤُلاء هُمُ الحَجِيجُ يَمْلئون الأَسْوَاقَ بالسِّلعِ والبَضَائِعِ . . . وكَانَ مُحَمدٌ يُتَابِعُ كلَّ شَىءٍ ويَتَأَمَّلُ البَيْعَ والشِّرَاءِ . . وأَلْوَانَ البَضَائِعِ المخْتَلِفةِ . . وهُوَ مَشْدُودٌ مُنْتَبِهٌ كَأَنَّما يُسَجِّلُ كُلَّ شَىءٍ . . .

وعِنْدَما بَلَغَ السَّادِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ كان الجميعُ قد تَعَلَّقَ بِهِ ، جدُّهُ عبْدُ المطَّلِبِ . . وعَمُّه أَبُو طالِبٍ . . . وحَاضِنَتُهُ الأُولَى

أُمُّ أَيْمنَ . . . وقَدْ كَانَتْ جَارِيَةَ أَبِيه فَوَرِثَتها آمِنَةُ وأطْفَالَ الجِيَرانِ . . . وبدأ يَلْحَظُ الصَّبىُّ مُحَمَّدٌ أَنّ لكُلِّ طِفْلٍ أَبًا يُنَادِيه الابْنُ ويَتَعَلَّقُ به ويَحْكِي عَنْه . . وسَأل أُمَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ : هَلْ لِى أَبٌ كَبَقِيَّةِ الأَطْفَالِ ؟ . . . وتَرَقْرَقَتْ دُموعُ آمِنَةَ . . وكَانَ مُحَمَّدٌ قد أكْثَر السُّؤَالَ فى هذا الأَمْرِ . . . فَلمْ تجِدْ بُدًّا مِنْ مُوَاجَهَةِ الموْقِفِ فقَالَت : نَعْم كَانَ لَكَ أُبٌ . . أبٌ عَظِيمٌ . . ثُمَّ . . قالَ لها : ثُم مَاذَا ؟ قَالَتْ : ثُمَّ مَاتَ . . . وَلَمْ يَفْهَم الطِّفْل تَمَامًا المَقْصُودَ بِكلِمَةِ مَاتَ فَقَرَّرَتْ الأُمُّ الذَّهَابَ إِلىَ يَثْرِبَ لِزيَارةِ قَبْرِ عَبْدِ اللَّهِ وليَتْعَرَّفَ الصبىُّ على أَخْوَالِهِ . وعِنْدمَا دَخَلَتْ آمِنَةُ يَثْرِبَ . . وطارَ خَبَرُ وُصُولها ومَعَها ابنُها مُحَمَّدٌ والجاريَةُ أُمُّ أَيْمَن . . . وخَرَجَ بَنُو النجارِ يُرَحِّبُونَ بِهِم وَرَاحَ كُلٌّ مِنْهم يحْتَضِنُ مُحَمَّدًا ويُحَاوِلُ إكْرَامَهُ قَدْرَ المسْتَطَاعِ . . فَأَنِسَ لهم مُحَمَّدٌ . . وعاشَ بَيْنَهم شَهْراً يَلْعَبُ مَعَ أطفَالِهم فى الحَدَائقِ الجميلةِ والبساتينِ ذاتِ النخيلِ والزهورِ . . . ورأى قُصُورَ يثْرِبَ الشَّاهِقَةَ وشَرِبَ من مياهِها العِذْبةِ ولَعِبَ مع الجَارِيةِ أُنيسَةَ ومَعَ أَوْلادِ أَخْوَالِه لُعْبَةَ الطَّائِرِ وسَمِعَ أجملَ القَصَص فى دارِ النَّابِغَةِ وتَعَلَّمَ السِّبَاحَةَ فى بِئْر بَنِى عَدِىّ بنِ النجَّارِ . . وانْطَلَقت مشاعِرُهُ فى هَذَا الجُوِّ الحَانِي الوَدُودِ ، وأَحَبَّ أَهْلَ يَثْرِب واستشفَّ طِيبَ عُنْصرِهم ولم يَنْسَهُم قط .



وفى أحَدِ الأَيَّام قَالَتْ آمِنةُ لمحمَّدٍ . . . اليْومَ سَنَذْهَبُ لزيارَةِ قَبْرِ أَبِيكَ عَبْدِ اللَّه ثُمَّ نَرْحَلُ إلى مَكَّةَ . . . وذَهَبَ الغُلاَمُ مُحَمَّدٌ إلىَ قَبْرِ أبِيهِ ، وظَنَّ أَنَّه يُمْكِنُه أَنْ يرَاه ، ولَكِنَّه وجَدَ أُمَّه تَقِفُ أَمَامَ مُرْتَفَعٍ من التُّرَابِ وتُلْقِى بِنَفْسِها عَلْيهِ وتَنْخَرِطُ فى بُكَاءٍ عَمِيقٍ وهى تحتضنُ الترابَ وتُقَبِّلُه . . . فَخفَقَ قَلْبُ الصَّبىِّ شَوْقًا للأَبِ وَرَحمةً بالأمِّ الأرمَلَةِ الحزِينَةِ . . . وراحَ القَوْمُ يُواسُونَها ويُعَزُّونَها . . وتتعثَّر الكَلِمَاتُ . . . وتَخْتَنِقُ العَبرَاتُ بالبُكَاءِ على فَقْدِ عبْدِ اللَّهِ . . وَرَاحَ مُحَمَّدٌ يُدَقِّقُ النَظَرَ فى التُّرَابِ عَلَّهُ يَسْتطَيعُ أَنْ يخْتَرِقَ هَذِه الأكْوَامَ ويَرَى أبَاه . . . ثُمَّ غَربْتَ الشَّمْسُ وحَانَ وقْتُ الرَّحِيلِ . . . فَوَدَّعَ الجَمِيعُ آمِنَةَ . . . وركِبَ الثَّلاثَةُ على النَاقَةِ . . . وكَانَتْ آمِنَةُ قَدْ تَهالَكَتْ . . وشَعَرَ الغُلاَمُ أَنَّ أُمَّهُ لا تَسْتَطِيعُ تَرْكَ المكَانِ . . وأَنَّها تَركَتْ قَلْبها هُنَاك عَلَى قَبْرِ أبِيهِ وعَادَتْ جَسَدًا شَاحِباً بِلا حَيَاةٍ . . . وفِى الطَّرِيقِ إلىَ مَكَةَ كَانَتَ آمِنةُ شَارِدَةَ الذِّهْنِ فى مَلَكُوتٍ آخَرَ . . لا تَأْكُلُ . . ولا تَشْرَبُ . . ولا تَتَكَلَّمُ كَأَنَّ رُوحَها قد سلَبَها عبْدُ اللهِ فى قَبْرِه . . ولَمْ يَسْتَطِعِ الصَّبِىُّ مُحَمَّدٌ أَنْ يُدْخِلَ الفَرْحَةَ على قَلبْ أُمِّه كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ لأَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِهَا ويُحِسُّ آلاَمَـها . . . فَلَمْ يَلْعَـبْ وَلَمَ يَتحَرَّكْ ظَلَّتْ عَينَاهُ تَرْقُبان



السَّمَاءَ فى عُلُوِّها والصَّحراءَ فى اتِّسَاعِها وأمَّه الشاَّحِبَة السَّارِحَة ، وَرَاحَ يُفَكِّرُ فى أَبِيه أَيْنَ ذَهَبَ ؟ ولماذَا ذَهَبَ ؟ وهَلْ لَهُ أَنْ يرَاهُ وَلَوْ مَرَّةً ؟ وَهَلْ ؟ وَهَلْ ؟ وانْتَبَه مُحَمَّدٌ عَلَى شَهْقَةٍ مِنْ أُمِّهِ الَّتِى فَاجَأَهَا المَوْتُ فى الطَّرِيقِ . . . ورأَى وَجْهَهَا وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُه . . . وَلَمَسَ جِسْمَهَا فَوَجَدَهُ بَارِدًا . . . وَلَمْ يَصْرَخِ الطِّفْلُ وَلَمْ تُدْرِكْ أُمُّ أيْمَنَ حَالَةَ الطِّفْلِ وَسَطَ هَذِه المأسَاةِ فتنحِّيه عَنِ المَكَانِ . . . بَلْ رَأَىَ وَهُوَ فى هِذه السِّنِّ الصَّغِيرَةِ مَشْهَدَ الدَّفْنِ كامِلاً . . . فَقَدْ دُفِنَتْ آمِنَةُ أَمَامَ عَيْنَىْ مُحَمَّدٍ عِنْدَ قَرْيِة (الأبـْواء) وتَنَبهَّتْ كُلُّ حَوَاسِّهِ وَأَدْرَكَ الطِّفْلُ فِى هَذَا السّنِّ حَقيقَةَ الحَيَاة . . . وكَيْفَ تَنْتَهِى بالموْتِ وكَيْفَ يُحْرَمُ الإنْسَانُ مِنْ أَعَزِّ النَّاسِ بِلاَ حَوْلٍ وَلا قُوَّةٍ لَهُ . . وَعَادَ اليَتِيمُ إلىَ مَكَّةَ وَقَدْ تحَجَّرَتِ الدُّمُوعُ فى مُقْلَتَيْهِ ، ومَرَارَةُ الحَسْرَةِ والأسَى فِى حَلْقِهِ . . وَقدْ بُحَّ صَوْتُه فَلَمْ يَعُدْ يَتَحَدَّثُ . . . وشَعَرَ بِفَقَدِ الأمِّ مَنْبَعِ الرَّحْمَةِ والعَطْفِ والحنَانِ . . . وحَاوَلَتْ (أمُّ أيمنَ) أَنْ تمْسَحَ عَنْهُ الحُزْنَ فَرَاحَتْ تَضُمُّهُ إِلىَ صَدْرِهَا وتَرْبُتُ على ظَهْرِهِ وصَدْرِهِ ولَكِنَّ مُحَمَّدًا كَانَ وَاجِماً غارِقاً فى مأسَاتِهِ لا يَشْعُرُ بِأحَدٍ حتىَّ وَقَعَتْ عَيْناهُ عَلَى جَدِّهِ يأتِى مُهَرْوِلاً يَفْتَحُ كِلْتا يَدَيْهِ للصَّبِيِّ الَّذى أَلْقَى بِنَفْسِهِ فى حُضْنِ جَدِّه ثُمَّ انْفَجَرَ فِى البُكَاءِ .



مُحَمَّدٌ مَعَ جَدِّهِ عبدِ المطَّلبِ



عاشَ مُحَمَّدٌ مَعَ جَدِّه عبْدِ المطَّلِبِ سيِّدِ قُرَيْشٍ وعَظِيمِها ، وحَاوَلَ الجدُّ تَعْوِيضَ مُحَمَّدٍ عَنْ فَقْدِ والِدَيْهِ فأَغدَقَ عَلَيه الحُبَّ والحنَانَ والرِّعَاية حتى أنَّه كَانَ مِنْ تَقَالِيدِ العَرَب أَنْ يَحترِمُوا الآبَاءَ ويُجِلُّوهم فَلاَ يَجْلِسُ الابْنُ بِجوَارِ أبِيهِ عَلَى فِراشٍ واحِدٍ إلاَّ إذا بَلغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ . . . وكَانَ هَذَا الأَدَبُ سَائِدًا فى قُرَيْشٍ . . . وكَانَ مِنْ عَادَةِ عَبد المطَّلِبِ سَيِّدِ قُرَيْشٍ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى فِراشٍ خاصٍّ بِهْ بِجوَارِ الكَعْبَةِ ، وكَانَ يَجْلِس حَوْلَه كُبَرَاءُ القَوْمِ يُنَاقِشُونَه أَهَمَّ الأُمُـورِ، ولَمْ يَكُن أحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلِسَ على فِراشِ سيِّدِ قُرَيْشٍ إِجْلالاً واحتِرَامًا .

وعِنْدَمَا كَانَ يَأْتِي مُحَمَّدٌ وَهُوَ فِي السَّادِسَةِ من عُمُرِه مُقبِلاً عَلَىَ جَدِّه وكَانَ جِسْمُه صَحيحاً وشَخْصِيَّتُه واضِحَةَ المَعَالِمِ ، كَانَ عبْدُ المطلِبِ يَهَشُّ له (أى يُرَحِّبُ ويَبْتسِمُ) ويَفْتَحُ كِلْتَا يَدَيْهِ لحفيدِهِ ويُجْلِسُهُ بِجوَارِه على نَفْس الفِرَاشِ . . . وكانَ بْعضُ الأعْمَامِ يُحَاوِلُ تأخِيرَ مُحَمَّدٍ أو تَنْحِيَتَه عَنَ الفِرَاشِ ، ولَكِنَّ عبْدَ المَطلِبِ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ : دَعُوا ابْنِي إِنَّه لَيُؤْنِسُ مُلْكا . . . أَيْ أَنَّ أُنْسَهُ يُعْطِى مُلْكاً بالكامِلِ ، وهَذَا دَلِيلٌ

عَلَىَ مُنْتَهى الرِّضَا . . . ثُمَّ يَظَلُّ عبْدُ المطَّلِبِ يَمْسَحُ عَلَىَ ظَهْرِ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ويُقَرِّبُهُ مِنْهُ . . بَلْ كَانَ عبْدُ المطَّلِبِ لا يَهنَأُ لَهُ طَعَامٌ إلا إذا نادَى على مُحَمَّدٍ لِيَأكَلَ مَعه .

لم يَكُنْ عَبْدُ المطَّلِبِ يُحِبُّ مُحَمَّدًا فَقَطْ لأنَّه حَفِيدُه اليَتِيمُ . . بَلْ كَانَ شَدِيدَ الإعْجَابِ بِهِ وبتَصَرُّفَاتِهِ ، فَعلَى الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ لَمْ يَكُنْ مُتهَافِتاً عَلَىَ الطَّعَامِ كَبَقِيَّةِ الأطْفَالِ ، وَلَمْ تَكُنْ يدُه تَطيشُ فى الأطْبَاقِ ، بَلْ كَانَ يَأْكُلُ مِمَّا يَلِيه بِطَرِيقَةٍ مُهَذَّبَةٍ ، ولا يَمُدُّ يَدهَ حتىَّ يمُدَّ الكبيرُ يَدَهِ . . ولَمْ يَكنْ يُسيءُ إلىَ المَكَانِ بِفَضَلاَتِ طَعَامٍ مُتَنَاثِرٍ . . بَلْ كَانَ يَتْرُكُ مَكَانَه بَعْدَ الأكْلِ نَظِيفاً ومُرَتَّباً وكَانَ يَشْرَبُ بدُونِ صَوْتٍ . . ولا يُقَاطِعُ الكِبَار عِنْدما يَتَكَلَّمُون ، كان مَحَطَّ أنْظارِ قَوْمِه لِأَدَبِهِ الجَمِّ ومَظْهَرِه النَّظِيفِ المرَتَّبِ ، فَكَانُوا يَتَأمَّلُونه ويتفرسون فيه حتى أَنَّ أَحَدَهُم قَالَ يَوْماً مَا إِنَّ قدَمَ مُحَمَّدٍ تُشْبِهُ قَدَمَ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ الموْجُودَةِ على الحَجَرِ . . فى صَحْنِ الكَعْبَةِ . . وكَانَ العَربُ مِنْ أَقْدَرِ الأمَمِ على مَعرِفَةِ الأقْدَامِ وتَقَفِّى الأثَرِ (أى تَتَبُّعِ أَثَرِ مَنْ مَشَى عَلَىَ الرِّمالِ والاهتداءِ إِلَيْه) .



مُحَمَّدٌ فِي كَفَالَةِ عَمِّهِ

كَانَ عَبْدُ المطَّلِبِ عِنْدَمَا أَحَسَّ بدُنُوِّ أَجَلِهِ اسْتَدْعَى اِبْنَه أَبَا طَالِب وَأوْصَاه خَيْراً بابْنِ أَخِيهِ . . وَرغْمَ أَنَّ سيِّدَ قُرَيْشٍ لَهُ من الأَبْنَاءِ الكَثِيرُ إِلاَّ أَنَّه اختَارَ أَبَّا طالِبِ لِقَلْبِهِ الكَبِيرِ وعَوَاطِفِهِ الفيَّاضَةِ ومروءتِهِ الظَّاهِرَةِ ونَخْوَتِهِ المتفرِّدَةِ . . بالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَبَا طالِبٍ كَانَ كَثِيرَ العِيَالِ قَلِيلَ المالِ إِلاَّ أَنَّ الجَدَّ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اليَتِيمَ يَكُونُ أَحْوَجَ مَا يُكوُنُ إِلى صِدْقِ العَوَاطِفِ مِنه إِلَىَ وَفْرَةِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ . . .



لِذَا أَقْبَلَ أَبوُ طالِبٍ عَلَىَ ابْنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ يَغْمرُه بالعْطَفِ ويَشْمَلُه بالرِّعَايةِ ويُخْلِطُهُ بِأَبْنَائِه وكأَنَّه واحِدٌ مِنْهُم ، فَبَسطَ عَلَيْه حِمَايَةً خَاصَّةً حتىَّ أَنَّه كَانَ لا يَنَامُ إِلا بِجِوارِهِ وَلا يَخْرُجُ إِلاَّ مَعَه . . وَكَانَ أَبوُ طَالِبِ يَشْعرُ بِبركَةِ هَذَا الغُلاَم فِي كلِّ شَئٍ في الطَّعام وفِي الشَّرَابِ فَمَا كَانَ يَجْلِس مُحَمَّدٌ عَلَىَ طَعام إِلاَّ وَأَكَلَ الجَمِيعُ وشَبِعوُا وظَلَّ الحَالُ هَكَذا حتىَّ بَلَغَ الغُلاَمُ الثَّانِيَة عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، وكَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ القِيامُ بِرِحْلَةِ الشِّتاءِ إِلىَ اليَمنِ ورِحْلَةِ الصَّيْفِ إِلىَ الشَّام . . وها قَدْ أَقبلَ الصَّيْفُ وهَا هِيَ القَوافِلُ تَسْتَعِدُّ لرحْلةِ الشَّام للتِّجَارَةِ . . وقد قرَّر أَبوُ طَالِب السَّفَر مع هَذِهِ القَوَافِل ، وَأَعَدَّ كُلَّ شَئٍ



القوافل تستعد لرحلة الشام للتجارة



سوق بصرى

تَوَجَّهَ أَحَدُ الرُّهْبانِ الصِّغَارِ إِلى أَعْضاءِ القَافِلَةِ العَرَبِيَّة وَرَاحَ يُؤَكِدُ عَلَيْهم دَعْوَةَ الرَّاهِبِ بَحِيرا ، وتَعَجَّبَ العَرَبُ مِن هذه الدَّعْوَةِ المُفَاجِئَةِ وقالوُا لَطَالمَا جِئْنَا ورأَيْنَا الدَّيرَ والرَّاهِبَ بَحِيرا فلمَ يَدْعُنَا . . . فما الَّذى حَدَثَ هَذِه المَرَّة ؟

وعِنْدَما اجْتَمَعَ الجَمِيعُ حَوْلَ المائِدَةِ . . ظَلَّ الرَّاهِبُ بَحِيرا يتفَرَّسُ مُحَمَّدًا . . ثُمَّ لَمْ يُطِقْ صَبْرًا . . .

فَقَالَ . .

مَنْ هَذَا الغُلاَمُ ؟

قَالوُا : مُحَمَّدٌ .

قَـالَ : لِمَنْ فِيكُم ؟

قَالُوا : لِأَبِي طَالِب . .

قَالَ الرَّاهِبُ : لَا إِنَّ هذا الغُلاَمَ يتَيمٌ . . قَالوُا نَعَمْ ماتَ أَبـوُه ، وهُـوَ فى بَطْـنِ أُمِّـه ثُمَّ مَـاتَتْ أُمُّـهُ وهُوَ فى السَّـادِسَةِ مِنْ عُمُرِه . .

اقْتَرَبَ الرَّاهِبُ بَحِيرا مِنْ مُحَمَّدٍ وأَمْسَكَ بِهِ ثُمَّ عَرَّى مَابَيْنَ كَتفَيْهِ وَوَقَعَ بَصَرُهُ على عَلاَمَةٍ فى ظَهْرِهِ . . فَغَطَّى ظَهْرَهُ وتَمَالَكَ نَفْسَهَ وتَمَلَّكهُ شُعُورٌ بالفَرَحِ ثُمَّ بالحُزْنِ الشَّدِيدِ . . فانْتَفَضَ واقفًا ونَادى عَلىَ أبي طَالِبٍ وتَنَحَّى بِهِ جانِباً وَقَالَ لَهُ : ـ عُدْ بِهَذَا الغُلاَمِ إِلىَّ مَكَّةَ . . اهْرَبْ بِه سَرِيعاً . . إِيَّاكَ أَنْ يَرَاه اليَهوُدُ . . . فَلَئِنْ رَأَوْه قتَلوُه . . عُدْ إِلىَ بَلدِك واكْتُم الخَبَرَ فَإِنَّه كائِنٌ لاَبْـنِ أَخِيـكَ هَذا شَـأْنٌ عَظِيمٌ .



العَمَــلُ المبكِّــرُ



كَانَ مُحَمَّدٌ مُنْذُ صِغَرِهِ شَدِيدَ الحَيَاءِ . . رَقِيقَ الحِسِّ . . مُرْهَفَ الشُّعُورِ ، فكَانَ يُحَاوِلُ دائمًا ألاَّ يُشَكِّلَ عِبئًا على أَحَدٍ مِنْ أَقَارِبِهِ بَلْ كَانَ يُحَاوِلُ الاعْتمادَ على نَفْسِهِ . . ولم يَكْتَفِ بِذَلِكَ بَلْ كَانَ يَعْرِضُ خِدْمَاتِه ومُسَاعَدَاتِه علي الآخَرِينَ . . فَمَا إِنْ وَصَلَ إِلى سِنِّ الثَّالثَةَ عَشْرَةَ حتىَّ طَلَبَ مِنْ عمِّهِ ضَرُورَةَ القِيام بِأىِّ عَمَلٍ يُعِينُ العمَّ عَلى كَثْرةِ العيَالِ وقِلة المالِ . . كَانَ يَتَمَنىَّ أَنْ يَتمَكَّنَ مِنَ الزِّرَاعَةِ حتىَّ يُشَارِكَ عَمَّهُ عِبْءَ الحُصُولِ عَلىَ الطَّعَام . . ولَكِنَّ المُنَاخَ فى مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ بالزِّرَاعَةِ . . كَانَ يَتمَنَّى أَنْ يُمارِسَ أَيَّةَ حِرْفَةٍ يَتَكَسَّبُ مِنْها ، ولَكِنَّ أَحَدًا مِنَ الحِرْفِيِّينَ لَمْ يَجْرُؤْ على اسْتِئْجَارِ مُحَمَّدٍ القُرَشِىِّ الهاشِمِىِّ . . لذَا اخْتَارَ مُحَمَّدٌ العَمَلَ فى رَعْىِ الأَغْنَامِ . . فَرَاحَ يَرْعَى غَنمَ الأَهْلِ فى وادٍ بِمَكَّةَ يَلِى جَبَلَ الصفا اسْمُه «أَجْيَاد» .

وَرَعْىُ الأَغْنَام يُربِّى فى الإِنسانِ مَلَكَةَ القِيَادَةِ والسِّيَاسَةِ والصَّبرِ . . والقُدْرَةِ على تَأَمُّلِ المعْجِزَاتِ . . وَإِدْرَاكِ الغَرَائِزِ . . كَغَرِيزَةِ التَّنَاسُلِ . . وحُبِّ البَقَاءِ . . والبَحْثِ عَنِ

الطَّعَام . . والأُمومَةِ والدِّفَاع عِنَ النَّفْسِ والهُرُوبِ من الخَطَرِ وغَيْرِها من الغَرَائِزِ التى تُحَرِّكُ الحَيَوانَ فى الدُّنْيا وتَحْفَظُ لَهُ النَّوْعَ لِذَا كَانْت مِهْنَةُ الرَّعْيِ هِى مِهْنَةُ كثيرِ من الأَنْبِيَاءِ .

لم يكنْ مُحَمَّدٌ يَذْهَبُ إلى رَعْيِ الغَنَم مُنْفَرِدًا بَلْ كَانَ مَعُه مِنْ شَبَاب مكَّةَ وكُهُولِها ونسائِها من يُمَارِسُ هذه المِهْنَة الأولَى فى هَذِه المنَاطِقِ الصَّحْرَاوِيةِ . . وبسَبَب مِهْنَةِ الرَّعْيِ هَذِه اخْتَلَطَ مُحَمَّدٌ بِرُفَقَاءَ له فى نَفْسِ سِنِّهِ فكَانُوا يَمْرَحُوْن معًا ويَلْعَبُون أحْيَاناً ويتجَالسُون . . .



وكَانَ مِنْ عَادَةِ الصِّبْيَة الشجَارُ والتَّنابُذُ بالأَلْقَاب . . والسَّبُ والشتْمُ . . وَأَحْيَاناً التَّضَاربُ بالأيْدِى والأَقْدَام . . كَنَوعٍ مِنَ المُدَاعَبَةِ أحْيَاناً وَكَنَوْعٍ مِنَ اندِفَاعِ الشَّبابِ ورَغْبَتِهِم فى الخُروجِ عَلَى التَّقَاليدِ والآدَابِ العَامَّةِ . . أَمَّا مُحَمَّدٌ فَقَدْ احْتَفَظَ بِشَخْصِيَّةٍ مَحْبُوبَةٍ مُتَرَفِّعةٍ لا تَصِلُ إلى دَرَجَةِ السِّبَابِ والشَّتَائِم الَّتِى يَنفُرُ منها كلُّ إِنْسَان سَوِيٍّ . . بَلْ لَمْ يَكُنْ أَحدٌ مِنَ الشَّبَابِ يَجْرُؤ عَلَى لَكْمِهِ أو سَبِّه . . لَقَدْ كَانَتْ لَهُ مَهَابَةٌ بين أَصْدِقائِهِ . . وكَانَ الكبَارُ يَضْرِبُون بِهِ المَثَلَ وَيقُولُون إنَّ مُحَمَّدًا لا يتَدَنَّى إلى ذِكْرِ أَلْفَاظٍ يُرَدِّدُها مُنْحَطُّو الشَّخْصِيَّةِ وصِغَارُ النُّفُوسِ .

حِلفُ الفضولِ

كَانَ العرَب قَبْلَ ظُهُورِ الإسلَامِ لاَ يُفَرِّقُون بين الحَلاَلِ والحَرَامِ فِى كَسْبِ أَرْزَاقِهِم . . كَانَ الظُّلْمُ سَائِدًا بَيْنَهمُ . . القَوِىُّ يَأْكُلُ الضَّعِيفَ ، بَلْ ويُبَاهِى بِأَنَّهُ جَبَّارٌ فى الأَرْضِ لايَرحَمُ . . وفى أَحَدِ الأَيَّـام قَدِمَ أَحَدُ التُّجَّارِ الغُرَبَاء عَنْ مَكَّةَ وَمَعَه بِضَاعَةٌ قَيِّمةٌ فَاشْتَرَاها العَاصِ بنُ وَائِلٍ . . وَلَمْ يَدفَع ثَمنهَا وراَحَ يُمَاطِلُ التَّاجرَ الغَرِيبَ فَأَخَذَ الرَّجُـلُ يَشْكُو لِلنَّاسِ فَلَمْ يَلتفِتْ أَحَدٌ لِشَكْوَاه ، فَهَدَاهُ تَفْكِيرُه أَنْ يَصْعَدَ عَلى جَبَلِ « أَبِى قبيس » . ويُنَادِى بِأَعْلَى صَوْتِهِ . . يَامَعْشَرَ قُرَيْش . . يَا سَادَةَ النَّاسِ . . يَا خُدَّامَ الْكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ . . يا سَدَنَةَ البَيْتِ الحَرَامِ . . يَا أَهْلَ المرُوءَةِ والشَّجَاعَةِ والْكَرَمِ . . لَقَدْ أَتَيْتُ إِلَيْكمُ مِنْ بِلادٍ بَعِيدةٍ بِتِجَارَةٍ وَفِيَرةٍ . . اشْتَرَاها مِنىِّ العَاصُ وَلَمْ يَدْفَعْ ثَمنهَا وأَخَذَ يُرَاوِغُ وَيَتَهَرَّبُ . . وَأَنْتُم أَهْلُ الحَرَمِ أَهْلُ الحقِّ والإِغاثَةِ ونُصْرَةِ المظلوم . . رُدُّوا عَلَىَّ مَالِى الَّذِى أَخَذَه العَاصُ ظُلْمًا وزُورًا . . وَأَخَذَ يَقُولُ شِعْرًا أَذَابَ قُلُوبَ السَّامِعينَ . . فَتحَرَّكَتْ النَّخْوَةُ العَرِبِيَّةُ وقَرَّرَ رُؤَسَاءُ القَبَائِلِ الاجْتِمَاعَ فِى دَارِ (عبدِ اللهِ بنِ جدعان) الَّذِى



أُخْرَى . . . لَقَدْ أَدْرَكَ بِفطْرِتِهِ النَّقِيَّة أَنَّ الَّذِى مَنَعَه هُوَ اللهُ . . وَهَكَذَا حفظَ اللهُ نَبِيَّه مِنْ مَجَالِسِ الشَّيْطَانِ حَيْثُ اللَّهْو ومَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ التَّدَنِّى فى المَعَاصِى والآثَامِ كالخَمْرِ . . والمَيْسِرِ . . والعَبَثِ . . والمجُونِ . .

اشْتُهرَ مُحَمَّدٌ فى مَكَّةَ أَنَّهُ عَزُوفٌ عَنِ العَبَثِ والفَوَاحِشِ . . وَأَنَّهُ لا يَشْرَبُ الخَمْرَ ولا يُقَامِرُ . . وأَنَّه شَابٌّ عَفِيفٌ يَتَعَالى عَنْ مَوَاطِنِ الخِسَّةِ والضَّيَاع . . ولا يَنْطِقُ فُحْشًا ولا كَذِبًا . . بَلْ لَقَدْ كَانَتْ السَّماحَةُ طَبْعهُ والرُّجُولَةُ المبَكِّرَة من شِيمَتِهِ ، وكَانَ عَلىَ وَجْهِهِ دائِماً ابْتِسَامَةُ رِضاً . . وفى لِسَانِهِ حَلاَوَةٌ جعلتْهُ مَحْبُوبًا مُحْتَرَماً مِنَ النَّاسِ . . وكَانَ الشَّبَابُ يُحدِّثُونَ آباءَهُم عَنْه حتىَّ أَجْمَعُوا بِأَنَّهُ الْوفِىُّ الَّذِى لا يَغْدِرُ . . والنَّاصِحُ الَّذِى لا يَغِشُّ . . والأَمِينُ الَّذِى لا يَخُونُ ، فَلَقَّبُوه بالأَمِينِ . . حتىَّ أَصْبَحَ هَذَا اللَّقَبُ وَصْفًا خَاصًّا بِهِ وَسْطَ بِيئَةٍ شَاعَ فيها السَّلْبُ والنَّهْبُ والرِّبَا . . والانْتِقَامُ .

كَانَ عَمُّه أَبُو طَالِبِ يَلْحَظُ كُلَّ ذَلِك ويَفْخَرُ بِهِ . . وَفِى أَحَدِ الأَيام دَعَاهُ إِلى حُضُورِ مَنَاسِكِ تَعْظِيم أَحَد الأَصْنَامِ ويُدْعَى « بُوَابَةَ » يَجْتَمِعُ النَّاسُ عِنْدهَ ويَحْلِقُونِ رُؤُوسَهم ويُقَدِّمُون القَرَابِينَ ويَبِيتُونُ عنْده يَوْمًا وَلَيْلَةً .



فَقَالَ له عَمُّه أبوُ طَالِبِ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ لَكَ فِى قَوْمِكَ مَكَانَةً كَبِيرَةً رَغْمَ صِغرِ سِنِّكَ لِذاَ لاَبُدَّ مِنْ حُضُورِ المَنَاسِكِ الَّتى ستُقَامُ اللَّيْلة لِلإلَـهةِ « بُوابَةَ » .

فَرَفَضَ مُحَمَّدٌ الذهَابَ واعْتَذَرَ لِعَمهِ . . ولَكِنَّ عَمَّه لَمْ يَقبَلِ الاعْتِذَارَ ونَادىَ عَلىَ عَمَّاتِه كَىْ يَرَيْنَ إصْرَارَ مُحَمَّدٍ على رفْضِهِ مُشَارَكَةَ قَوْمِهِ فى تَقْدِيم القَرَابِينِ لِلأَصْنَام المنْتَشِرَةِ فى صَحْنِ الْكَعْبَةِ . . كَانَ مُحَمَّدٌ شَديدَ الحَيَاءِ فَخَجِلَ مِنْ عَمِّهِ واتَّجَهَ مَعُه إِلىَ الكَعْبَةِ . . ومَا إِنْ وَصَلَ إِلىَ الأَصْنَام حَتىَّ فرَّ مَرْعُوبًا وَدَخَلَ على عَمَّاتِه مَخْطوفَ اللَّوْنِ يَرْتَعِدُ فَقُلْنَ لَهُ : مَا دَهَاكَ ؟ قَالَ : إِنىِّ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بى مسٌّ من الجِنِّ . . فَقُلْنَ . . ما كَانَ اللهُ لِيَبْتَلِيَكَ بالشَّيْطَانِ وفِيكَ مِنْ خِصَالِ الخيْرِ مَا فِيكَ . . فَمَاذَا رَأَيْتَ ؟ قَالَ : كُلَّمَا دَنَوْتُ مِنْ صَنَمٍ ظَهَرَ لِى رَجُلٌ أَبْيَضُ قَوِىُّ الجِسْمِ يَقُولُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ وَرَاءَكَ يَامُحَمَّدُ لا تَمَسَّهُ :

خَافَتْ العمَّاتُ عَلىَ مُحَمَّدٍ . . وَخَافَ عَمُّه عَلَيْه أَيْضًا . . واتَّفَقُوا فيما بَيْنَهم أَلاَّ يَذْهَبَ مُحَمَّدٌ إلى الأَصْنَامِ قَطْ . . عَلىَ أَلاَّ يُخْبِرُوا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بهذَا الأَمْرَ .



حَـرْبُ الفِجَـــار



رَغْمَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ يُخَالِفُ قَوْمَه فِى كَثِيرٍ مِنْ أَخْلاَقِهِم وعَادَاتِهِم السَّيئَةِ إلاَّ أَنَّهُ لم يَكُنْ يُجَافِيهم أَوْ يَتَأَفَّفُ مِنْ مُخَالَطَتِهِم عَلَىَ ما هُمْ عَلَيْه مِنْ طِبَاعِ الجَاهِلِيَة، بَلْ لَقَدْ كَانَ يُشَارِكُهُم مَشَاكِلَهُم ويُحِبُّهُم ويُحِبُّونَه . . وعِنْدَمَا قَامَتْ حَرْبُ الفِجَار بَيْنَ قُرَيْشٍ وهوازن بسَبَبِ غَدْرِ رَجُلٍ من قُرَيْشٍ بِرَجُلٍ مِنْ هوازن فَقَتَلَهَ فى الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، وكَانَ العَرَبُ يُقَدِّسُون هَذِه الأَشْهُرَ وَيمْنَعُونَ القِتَالَ فيها . . وعِنْدَمَا انْدَلَعَت الحَرْبُ رَاحَ مُحَمَّدٌ يُسَاعِدُ أَعْمَامَهُ وَيَجْمَعُ لَهمُ السِّهَامَ الَّتِى يُرْمَى بِهَا الأَعْدَاءُ . . ويُحَاوِلُ إِصْلاَحَ ما اعْوجَّ منها . . وكان يَبْلُغُ مِنَ العُمُرِ عِشْرِينَ عَامًا عِنْدَما بَدَأَتْ الحَرْبُ والتى استَمَرَّتْ أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ حتىَّ تَصَالَحتْ قُرَيْشٌ مَعَ هوازن .

سَارَعَ بإعْدَادِ مَائِدَةٍ للطَّعَامِ . وبَعْدَ أَنْ جَلَسَ الجميعُ يَتَنَاقَشُونَ فى أَمْرِ التَّاجِرِ الغَرِيبِ ، واعْتَبرُوا ذَلِك لأَوَّلِ مرَّةٍ عَارًا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ . . واتَّفقوُا فِيمَا بَيْنهم على نُصرَةِ المظْلوُم وَأَخَذُوا ثَمَنَ البِضَاعَةِ من (العاصِ بنَ وائلٍ) ودَفَعُوها لِلرَّجُلِ ، وَكَانَ ذِلَك فِى شَهْرِ ذِى القِعْدةِ وَهُوَ شهرٌ حَرَامٌ . . وسُمِّىَ هذا الحِلْفُ (حلفَ الفُضُولِ) وعِنْدَما سَمِعَ مُحَمَّدٌ بِهَذَا الحِلْفِ حَضَرَ مُسْرِعاً لِيُشَارِكَ فى هَذَا الحِلْفِ الَّذِى يَحْتَرِمُ حُقُوقَ الإِنْسَانِ ويُعْلِى قَدْرَهُ .



زَوَاجُ مُحَمَّدٍ

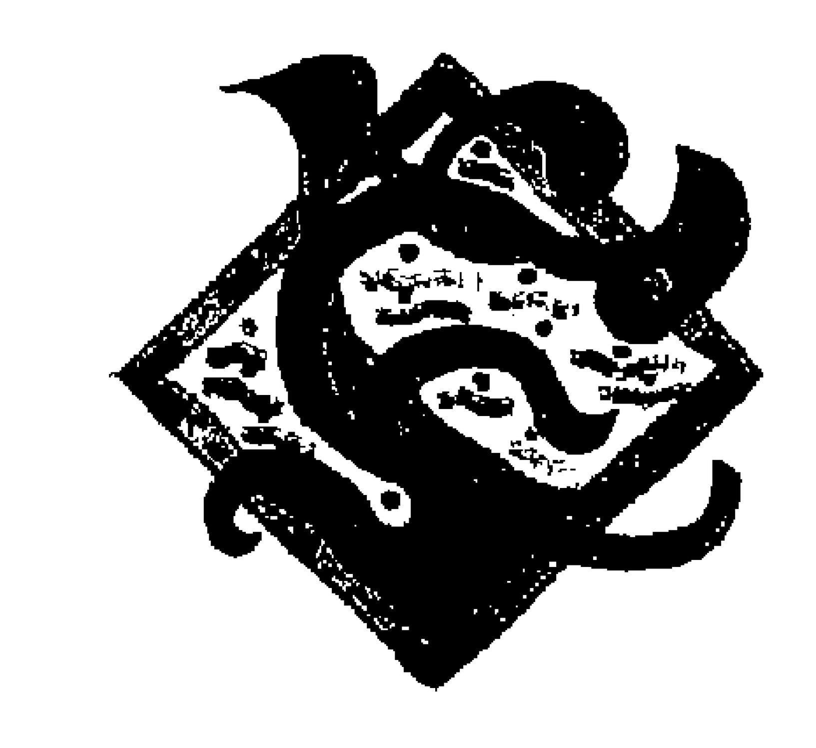
كَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلدٍ مِنْ أَعْلَىَ القَبَائِلِ نَسَبًا . . وَكَانَتْ مَشْهُورَةً بالجَمَالِ وحُسْنِ الخُلُقِ كَانَتْ بَيْضَاءَ اللَّوْنِ تَمِيلُ إِلَىَ السِّمْنَةِ واسِعَةَ العينَيْنِ ذَاتَ شَعْرٍ أَسْوَدَ ناعِمٍ . . وكَانَتْ أَرْمَلَةً فِى التَّاسِعةِ والثَّلاَثِينَ . . شَديدَةَ الثَّراءِ لَهَا تِجَارَةٌ وَاسِعَةٌ فِي الأَسْوَاقِ . . تَسْتَأْجِرُ أَفْضَلَ الرِّجَالِ لِتَقُودَ قَوَافِلَ تِجَارَتِها شَمَالاً وجَنوُبًا . . كَانَ النَّاسُ يُلَقِّبُونَها بالطَّاهِرَةِ و«سَيِّدةِ قُرَيْش » وَكَانَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ وَعُظَمَاؤْها يَتَمَنَّوْنَ الزَّوَاجَ مِنْها . . وكَانَتْ خَدِيجَة تَعْرِفُ كُلَّ شَىءٍ عَنْ مُحَمَّدٍ مُنْذُ صِغَرِهِ ، فَهُوَ مِنْ بَنِى عُمومَتِها ، فَكَانَتْ تَعْرِفُ عَنْه الهِمَّةَ والحَزْمَ وسَدَادَ الرَّأْيِ والصِّدْقَ والأَمَانَةَ . . لِذَا كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ تَسْتَأْجِرَ الصَّادِقَ الأمِينَ إِلاَّ أَنهَّا كَانَتْ تَسْتَحِى أَنْ تَطْلُبَ ذَلِك مِنْ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ يعلْمِها أَنَّ عَمَّه شَديدُ الخَوفِ عَلَيه مِنْ سَفَرِهِ بَعِيدًا عَنْ مَكَّةَ . . فَرَاحَتْ تَتَلَطَّفُ وتَرْجُو أَبا طَالِب أَنْ يَأْذَنَ لابنِ أَخِيه فِى رِحْلَةِ الشَّام . . وكَانَتْ سَنَةً مُجْدِبَةً . . وَأَزْمَةً شَدِيدَةً فَوَافَقَ أَبُو طَالِبٍ وَعَرَضَ على ابْنِ أَخِيهِ السَّفَرَ . . فَقَبِلَ مُحَمَّدٌ وخَرَجَ بِتِجَارَةِ خَدِيجَةَ إِلَىَ الشَّامِ ومعه غلامُها « مْيسَرَة » .



خَرَجَ أَعْمَامُ مُحَمَّدٍ وعَمَّاتُه لِتَوْدِيعِهِ قَبْلَ السَّفَرِ ، وقُلوُبُهم مَشْدُودَةٌ إِلَيْه خَوْفاً وحُباً . . وانْطَلَقَتْ القَافِلَةُ تَسِيرُ فى الصَّحَرَاءِ الموحِشَةِ ، والشَّمْسُ تُرْسِلُ أَشِعَّتَها المُحْرِقَةَ . . والهَوَاءُ السَّاخِنُ يَلفَحُ الوُجوهَ فَكَانَ القَوْمُ يُصَابُون بالدُّوَارِ والهبُـوُطِ مِنْ شِـدَّةِ الحَـرِّ . . ويَخْتَبِئُون فى الهوَادِج . أَمَّا مُحَمَّدٌ فَقَدْ كَانَ دائِمَ البِشْرِ . . هَادِئَ النَّفْسِ كَأَنَّما تُظَلِّلُهُ غَمَامَةٌ . . وَلَقَدْ لاَحَظَ مَيْسَرَةُ هَذِه السَّكِينَةَ الغَرِيبَةَ وَرَأَى أَنَّ مُحَمَّداً لاَيَتَضَرَّرُ ولا يتبرَّمُ ولا يَشْكو . . كَأَنَّهُ سابِحٌ فى مَلَكُوتٍ آخَرَ .

وعِنْدَمَا وَصَلَت القَافِلَةُ إلى الشَّام نَشِطَ مُحَمَّدٌ فى عَمَلِيَّاتِ البَيْعِ نَشَاطًا غَيْرَ عَادِيٍّ حتىَّ بَاعَ كُلَّ بضَاعَتِه وَرَبِحَ رِبْحًا وَفيرًا وَأَخَذَ يَشْتَرِى أَجْوَدَ أَنْوَاعِ بَضَائِعِ الشَّام . . ثُمَّ شَعَرَ بالإِرْهَاقِ فَاتَّجهَ إِلىَ ظِلِّ شَجَرَةٍ جَافَّةٍ كَانَتْ بالقُرْبِ مِنْ أَحَدِ الأَدْيِرةِ حَيْثُ صَوْمَعَة أَحَدِ الرَّهْبَانِ ، فَنظَرَ الرَّاهِبُ إِلَى مَيْسَرَةَ وقَال لَه : من هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي نزلَ تَحْتَ الشجرةِ ؟

قال مَيْسَرةُ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الحَرَمِ ، فَعَلَّقَ أَحَدُ التُّجَّارِ الشَّوَامِ كَانَ يَقِفُ بِجوَارِ الرَّاهِب قَائِلاً إِنَّ مُحَمَّدًا هَذَا يَخْتَلف عَنْ بَقِيَّة عَرَبِ مَكَّةَ ، إِنَهَ رَفَضَ أَنْ يُقْسِمَ باللَّاتِ والعُزَّى أَثْنَاءَ البَيْعِ والشِّرَاءِ . . ومَعَ ذَلِك فَهُو صَادِقٌ وأَمِينٌ لاَيُدَارِى ولا يُمارِى . .



قَالَ الرَّاهِبُ وَكَأَنَّـه يُـحَدِّثُ نَفْسَهُ . . صَادِقٌ وَأَمِينٌ . . ولا يُقْسِـمُ بالأَصْنَـامِ ثُمَّ يَنَامُ تَحْتَ هَذِه الشَّجَرةِ . . ! واللهِ ما نَزَلَ تحْتهَا إلاّ نِبىٌّ . . .

وَأَرَادَ مَيْسَرَةٌ أَنْ يَتَحقَّقَ مِمَّا سَمِعَ ولَكِنَّ مُنَادِيًا أَخَذَ يُنادِى مُعْلِنًا أَنَّهُ قَدْ حَانَ أَوَانُ العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ وعَلىَ القَوْمِ أَنْ يتَحَرَّكُوا سَرِيعًا . .

وفِى الطَّرِيقِ كَانَ مَيْسَرَةُ دَائِمَ النَّظَرِ إلىَ مُحَمَّدٍ يَتَأَمَّلُ فِيهِ كُلَّ شَىءٍ . . هُدُوءَه . . تواضعَهُ . . أَدَبَه فى مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ . . أَمَانَته الَّتِى لَيْس لَهَا مَثِيلٌ . . لِذا كَانَ مُتشوقًا لِلِقاءِ سَيِّدَتِه خَدِيجَة حتىَّ يَحْكِى لها كُلَّ ما رَأَى وسَمِع . .



* * *

وَقَفَتْ خَدِيجَةُ فى غُرْفَةٍ عَالِيَة تَنتْظَرُ قُدُومَ القَافِلَةِ . . فَرَأَتْ الجِمَالَ والحَمِيرَ والبِغَالَ قَادِمَةً مِنْ بَعِيدٍ مُحَمَّلَةً بالبَضَائِع . . فَدَقَّ قَلْبُها بالفَرْحَةِ وعَلِمَتْ أَنَّ تِجَارَتَها قَدْ رَبِحَت . . وكَانَ فى مُقَدِّمَةِ القَافِلَةِ مُحَمَّدٌ كالْقَمَرِ المنُيِرِ سَاكِنَ النَّفْسِ . . هَادِئَ البَالِ . . وبِجوَارِه مَيْسَرَةُ يَكَادُ يَطِيرُ فَرَحًا يُرِيدُ أَنْ يَسْبِقَ الجَمِيعَ ويَحْكِى لِسيِّدتِه خَدِيجَةَ مَا رَأَى وَمَا سَمِع ، ورَاحَتْ خَدِيجَةُ تُلَوِّحُ بِيَدَيْها تَحِيَّةً لِلقَادِمينَ .

ودخَلَ مُحَمَّدٌ عَلَيها . . ورَاحَ يَقُصُّ لَهَا كَيْفَ بَاعَ ؟ ومَاذَا

رَبِحَ ؟ وأين نَزَلَ ؟ ومَاذَا اشْتَرَى ؟ وهِىَ مَبهُورَةٌ بِكُلِّ هَذِهِ القَصَصِ وكُلِّ هَذَا الرِّبْحِ . . وقَرَّرَتْ أَنْ تُضاعِفَ لَهُ الأَجْرَ وعَادَ مُحَمَّدٌ إلى عَمِّهِ مَسْرُورًا يَحْمِلُ لَهُ الأَمْوَالَ والهَدَايا .

أَمَّا خَدِيجَةُ فَقَدْ باتَتَ تُفَكِّرُ فى هذَا الشَّابِ القَوِىِّ الأمِينِ الَّذِى اسْتَأْجَرَتْه فكَانَ نِعْمَ الرَّجُلُ المؤْتَمَنُ . . وسَرَى فِى نَفْسِها طَائِفٌ أَرْسَلَه اللهُ . . لماذَا لا تَتَزَوَّجُ هَذَا الصَّادِقَ الأمِينَ ؟ وشَرَحَ اللهُ قَلْبَها فَأَرَادَتْ أَنْ تُفْصِحَ عَنْ مَكْنُونِ صَدْرِها ولكِنهَّا اسْتَحَتْ وهِىَ الأَرْمَلَةُ ذَاتُ الأَرْبَعِين عَامًا الَّتِى رَفَضَتْ وُجَهَاءَ قُرَيْشٍ وكُبَرَاءَهَا . .



وراحَ مَيْسَرَةُ يَحْكِى لِسَيِّدتِه العَجَبَ . . وهِىَ لا تَكِلُّ ولاتَمَلُّ كَأَنَّما لا تُرِيْدُ إِلاَّ أَنْ تَسْمَعَ عَنْ ابْنِ عَمِّها هَذَا فى كلِّ وَقْتٍ . .

ومرَّت أَيَّامٌ وَهذَا الخاطِرُ يَعتْمِلُ فى نَفْسِها حتىَّ قَرَّرَتْ التَحَدُّثَ مَعَ إِحْدَى صَدِيقَاتِها وهِىَ « نَفِيسَةُ بِنْتُ منبه » قَالَتْ لهَا : تَعْلَمِينَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَرِيبٌ لى . . كان قُصَىٌّ جَدِّى وجَدَّه فى نَفْسِ الوَقْتِ ، فَأَنا قُرَيْشِيَّةٌ وهو قُرَيْشِّى . . كما أَنَّه الصَّادِقُ الأمِينُ . . ولكَم أَنَا فِى حَاجَةٍ إِلىَ زَوْجٍ يَقِفُ إلى جوارى . . يَكُونُ أمينًا على مالى . . ثم صَمَتَتْ بُرْهَةً وَقَالَتَ : إِنى أَرْتَاحُ إِليْه . . وَأَتَمَنىَّ الزوَّاجَ مِنْه . . فَماذَا أَفْعَلُ؟

قَالَتْ نَفِيسَةُ : دَعِى هَذَا الأمْرَ لى بأَكْمَلِهِ . . ثُمَّ انْصَرَفَتْ ذَاهِبَةً إِلَىٰ مُحَمَّدٍ . . وبَعْدَ أَنْ جَلَسَتْ قَالَتْ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ ما يَمنْعَك مِنْ أَنْ تتزَوَّجَ ؟

قـــال : ليس ما بيَدِى مَا أَتَزَوَّجَ بِه .

قَالَتْ : فَإِنْ كُفِيتَ ذَلِكَ ، ودُعِيتَ إِلى الجَمَالِ والمَالِ والشَّرَفِ والكَفَاءَةِ أَلاَ تُحِبُّ ؟

قـــال : فَمَنْ هِى ؟

قَالَتْ : خَدِيجَة بِنْتُ خُوَيْلد سيِّدَةُ نِسَاءِ قُريش .

قَـــالَ : ومَنْ لِى بِذَلِكِ ؟

قَالَتْ : اتْرُكْ لى هَذَا الأَمْرَ أفْعَلُهُ لك . .

استَبْشَرَ مُحَمَّدٌ . . وانْشَرَحَ صَدْرُهُ . . فَخَدِيجَةُ سَيِّدَةٌ لامَثِيلَ لَهَا يَتَمَنَّاها أَغْنِيَاءُ القَوْمِ فَهِىَ الطَّاهِرَةُ الجَمِيلَةُ . . وَهِىَ القَرِيبَةُ الحَبِيبَةُ .

طَارَتْ نَفِيسَةُ إِلَىٰ صَاحِبَتِهَا خَدِيجَةَ لِتَزُفَّ إِليها البُشْرَى . . فَسُرَّتْ خدَيجَة أيَّمَا سُرُورٍ ، وقَرَّرَتْ التَّوَجُهُ إِلى ابْنِ عَمِّها وَرَقَةَ ابنِ نَوفَلَ لِتُخبِرَه . . وَكَانَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلَ من أَهْلِ الكِتَاب قَدْ قَرَأَ النَّصْرَانِيَّة وعَلِمَ أَنَّ نَبِيًّا سَيَظْهَرُ فى أَرْضِ العَرَبِ اسمُهُ أَحْمَدُ . . قَدْ آنَ أَوَانُه . . وَكَانَ يَسْمَعُ عَنْ مُحَمَّدٍ وتَرَفُّعِهِ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ . . وسُمُوِّ أَخْلاَقِهِ . . وطَهَارَةِ قَلْبِه ولِسَانِه . . فعِنْدَمَا أَخبَرَتْهُ خَدِيجَةُ بالخَبَرِ رَحَّبَ تَرْحيبًا شَدِيدًا ثُمَّ مَالَ عَلَىٰ





ضرب الدفوف فى فرح محمد

بِنَـــاءُ الكَعْبَـــةِ



عِنْدَمَا بَلَغَ مُحَمَّدٌ الخَامِسَةَ والثَّلاثِينَ مِنْ عُمُرِه . . أَصَابَ الكَعْبَةَ سَيْلٌ جَارِفٌ وَأَمْطَارٌ غَزِيرَةٌ . . . فَتَحطَّمَتْ جوانبُها وتهَدَّمَتْ أَرْكَانُها وَأَرَادَ زُعَمَاءُ القَبَائِلِ تجْدِيدَ الكَعْبَةِ وبناءَها . . فرَاحُوا يَعدُّون العُدَّةَ ويَعْمَلُونَ بجِدٍّ ونَشَاطٍ حتَّى اشْتَرَكَ النِّسَاءُ مَعَ الرِّجَالِ مَعَ الصِّبْيَانِ الكُلُّ يُرِيدُ أَنْ يَنَالَ شَرَفَ بِنَاءِ الكَعْبةِ ، وَلَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِى ذَلكِ الوَقْتِ يَنْقُلُ الحِجَارَةَ إِلَيهْم مَعَ عَمِّهِ العَبَّاسِ . . وعِنْدَما وَصَلوا إلَىَ الحَجرِ الأَسْوَدِ . . أَرَادُوا أَنْ يَضَعُوه فى مَكَانِه مِنَ البِنَاءِ . . وَبدَأَ الخِلاَفُ أَيُّهم يَنَالُ شَرَفَ حَمْلِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ ووضْعِهِ فى مَكَانِه . . وكَانَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ لَهُ فى نُفُوسِهِم مَكَانَةُ الإِجْلاَلِ والتَّقْدِيسِ ، واشْتَدَّ الخِلاَفُ حتَّى كَادَت الحَرْبُ تَنْشبُ بينْهَم . . لَوْلاَ رَجُلٌ مِنْهم قَوِيُّ المَكَانَةِ صَاحَ . . يا مَعْشَرَ القَبَائِلِ . . تَعَقَّلُوا . . واصْبِرُوا . . وحَكِّمُوا بَيْنَكُم أَوَّلَ قَادِم عَلَى الكَعْبَةِ . . فارْتَضَوْا ذَلك وَوَقفُوا يَرْقُبُون أَوَّلَ قَادِم . . فَإِذاَ هو « مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ » . . صَاحَ الجَمِيعُ الصَّادِقُ الأَمِينُ . . الصَّادِقُ الأَمِينُ رَضِينا به حَكَماً . . وعِنْدَمَا سِمَع

مُحَمَّدٌ القِصَّةَ فكَّرَ قَلِيلاً ثُمَّ قَالَ « هَلُمُّوا إِلَيَّ ثَوْبًا » فَجَاءوا بالثَّوْبِ فَوَضَعَهُ مُحَمَّدٌ على الأرْضِ ثُمَّ أَخَذَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ فِي وَسَطِ الثوبِ وقَالَ : لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ . . ثُمَّ رَفَعُوه جَمِيعًا . . فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ فِي مَكَانِهِ وَرَاحُوا يَبْنُونَ عَلَيْه . . وَهَكَذَا كَانَتْ حِكْمَةُ مُحَمَّدٍ وَسَلامَةُ تَفْكِيرِهِ الَّتِي أَنْقَذَتْ قَوْمَهُ مِنْ حَرْبٍ طَاحِنَةٍ .



رقم الإيداع : ٨٩٣٦ / ٩٤
I.S.B.N. : 977 - 09 - 0234 - 9

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣



عبد المطلب يمارس سقاية الحجيج بنفسه فى حياض من جلد



قال الهاتف : يا عبد المطلب احفر زمزم عند نقرة الغراب

وابنِهِ واجْتَمَعَ كُلُّ زعيمِ قَبِيلةٍ ومَعَه عَدَدٌ كَبِيرٌ من أبنْائِه وحَاوَلُوا منْعَه من الحفرِ ، ولكنه رفضَ بِإصْرَارٍ ، فأخَذُوا يضغطُون عليه بالكلماتِ الموجعة حتى سقط **عبدُ المُطَّلِب** باكياً من شدَّةِ الأخْذِ والعَطَاءِ . . . وفى هذِه الأثناء رفع **عبدُ المُطَّلب** وجْهَهُ إلى السَّمَاءِ وتمنى أن يَهَبَهُ اللهُ عَشْرَةَ أبْنَاءٍ يُسَاعِدُونه ويُدافِعُون عنه . . . ثم نَذَرَ للهَّ أن يذبحَ ابْناً منهم إذا هم بَلغُوا عَشَرةً من الرجالِ . . .



ونَظَرَ القَوْمُ إلى **عبدِ المُطَّلب** سَيِّدِ قُرَيْشٍ وهو يَبْكى ويدعُو، فتركُوه يَحْفُرُ وقَرَّرُوا ألاَّ يتعرضُوا له بسوءٍ ، وراحَ يحفرُ ويحفرُ بِلاَ تَوَقُّفٍ لمدَّةِ ثَلاَثَة أيَّام . . . ثم بدأ اليأسُ يدُبُّ فى نفسِه ، وقرَّرَ أن يَضْرِبَ بفأسِهِ مرَّةً أَخِيرَةً ثم يَتَوَقَّفُ تماما لعَلَّ الذَّى رَآهُ ضَرْباً مِنَ الأحْلاَمِ . . . وما إن رَفَعَ الفأسَ وانْهالَ على الأرْضِ ، حتى شَعَرَ بشىءٍ صَلبٍ فانكَبَّ عليه وراحَ يحفُرُ بكِلْتَا يَدَيْه حتى عَثُرَ على غزَالَيْنِ من ذَهَبٍ ، كما استخرج دُرُوعاً وأَسْيَافاً والآتِ حَرْب ، فَسعِدَ بذلك كُلَّ السَّعادَةِ واستمرَّ فى الحفرِ حتى رأى ماءَ زَمْزَمَ . . . فَصاحَ مكبِّرًا هذا بِئْرُ إِسْمَاعِيلَ . . هذا بِئْر زَمْزَمَ . . . فأقبلَ عليه القومُ مُسرعينَ لِيشَارِكُوه كلَّ ما عَثرَ عَلَيْه . . .



وما أن اعتدلت الناقة واقفة حتى فوجئ الجميع بالماء يتفجر



قال زعيمهم : لقد ظهر الحق واضحًا جلياً



سادن الكعبة يقرع بالقداح



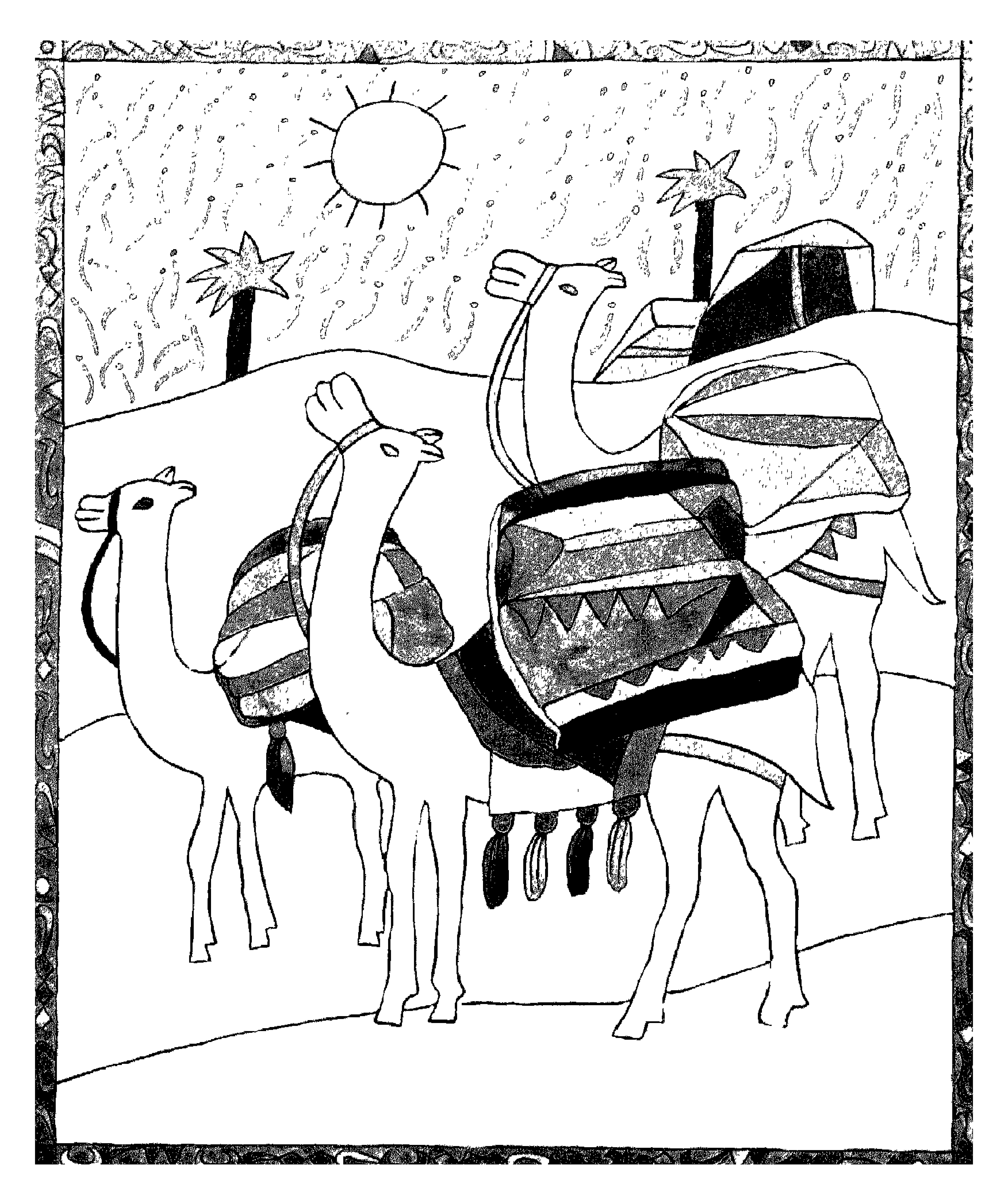
العـــرافـــــة



ثم مازالوا يزيدون عشره فى عشره حتى بلغت المائة



ذهب العروسان إلى منى



رحلة عبد الله إلى الشام

لايقْفِزَ منها ، وصمتَ عبدُ المطَّلِبِ لم يستطعْ أن ينطِقَ بِكَلِمَةٍ . . . بينما راحت آمنةُ تُتَمْتِمُ . . . أطالَ الله فى عمرِك يا أبى . . فيك العوْضُ . . فيك الرجاءُ . . ثم حاولت أن تتمالَكَ دَمْعَهَا ولَكِنَّه نزلَ غزِيرًا حارًّا حتى بكى جميعُ الرجالِ . . وخرجَ عبدُ المطَّلِبِ مُسْرعًا إلى الكَعْبةِ يَشْكُو حُزْنَه إلى اللهِ ويَدْعُوه أن يخفِّفَ عنه وعن الأرمَلةِ العروسِ .





وادرك عبد المطلب أن ولده الحبيب قد مات



ثم وضعت آمنة ولدًا



قال راصد النجوم : طلع نجم أحمد .. طلع نجم أحمد

ويُعَلِّمُهُم الكتابَ والحِكمةَ ويُزَكِّيهِم إنك أنت العزيزُ الحكِيمُ﴾ سورة البقرة ١٢٩ . ولقد بَشَّـرَ عِيسَى عَليه السَّلامَ بِنَبِيٍّ من بعدِه فقال تعالى :

﴿ وإذ قالَ عيسى ابنُ مريمَ يا بَنى إسرائيلَ إنى رسولُ الله إليكم مصدِّقًا لما بين يدىَّ من التوراةِ ومبشرًا برسولٍ يأتِى من بَعْدِى اسمُهُ أحمدُ ﴾ سورة الصف آية (٦) .



حَليمَـةُ السَّعْدِيَّـةُ



كانت آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ رَغْمَ فَرْحَتِها الغامِرَة بوليدِها . . . تتذكَّرُ دائمًا أبَاهُ عَبْدَ اللهِ وكيف ماتَ دُونَ أن يَرَى ابنَه . . وكَيْفَ سيعيشُ هذا الطِّفْلُ بِدُونِ أبٍ يتيمًا رقيقَ الحالِ . . . وكثيرًا ما كان يَتَحَرَّكُ هذا الحزْنُ الدَّفِينُ فى نَفْسِها حتى جفَّ لبنُها . . وكانت جاريةُ أبِى لَهَبٍ تُدْعَى « ثُوَيْبَةَ » تُرضِعُ ابنَهْا ، فطلبت منها آمِنَةُ أن تُرْضِعَ مُحَمَّدًا ، فرحَّبَتْ « ثُوَيْبَةَ » بذلك وراحَت تُرْضِعُهُ ثلاثةَ أيامٍ ، وعندما وصلَ خبرُ وصـول المرْضِعَـاتِ من البـادِيَة ، فَرِحَتْ آمنةُ واستبْشَرَتْ خَيْرًا . . . وكَانَ من عَادَةِ الأشرافِ من أهل مكةَ أن يبعثوا بأطفالِهم الرُّضَّعِ إلى الصَّحَراءِ مع المرْضِعَاتِ ؛ لأن جوَّ الصحراءِ أنقى وأصحُّ من جوِّ مكةَ المشبعِ بالرطوبةِ . . وكانت كلُّ مُرْضِعَةٍ تطمَعُ فى الحصولِ على طفلٍ غنىٍّ يَصُبُّ والدُه عليها من الخَيْرِ ما يُشبِعُها ويُشْبِـعُ أُسْرتَها .

وانتظرَت « آمنةُ » أَنْ تَتَقَدَّمَ إِحْدَى المرْضِعَات لأخذِ طِفْلِها ، ولَكِنهُّن انصرَفْنَ عنهُ وقُلْنَ لها : إِنَّه يتيمٌ فماذا يُمْكِنُ أن نَأْخَذَ من ورَائِه ؟ وكانت آمِنَةُ تَشْعرُ بالإِحْبَاطِ كلما رفضتْهُ إِحْدَاهُنَّ حتى اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاها بالدُّمُوعِ ، وعندما حانَ موعدُ



حليمة السعدية وزوجها



وشرب وشربت حليمة حتى إرتويا



الأغنام النحيفة صارت نشيطة





فرحة الشيماء بعودة محمد



حليمة تنطلق إلى المراعى للإطمئنان على محمد

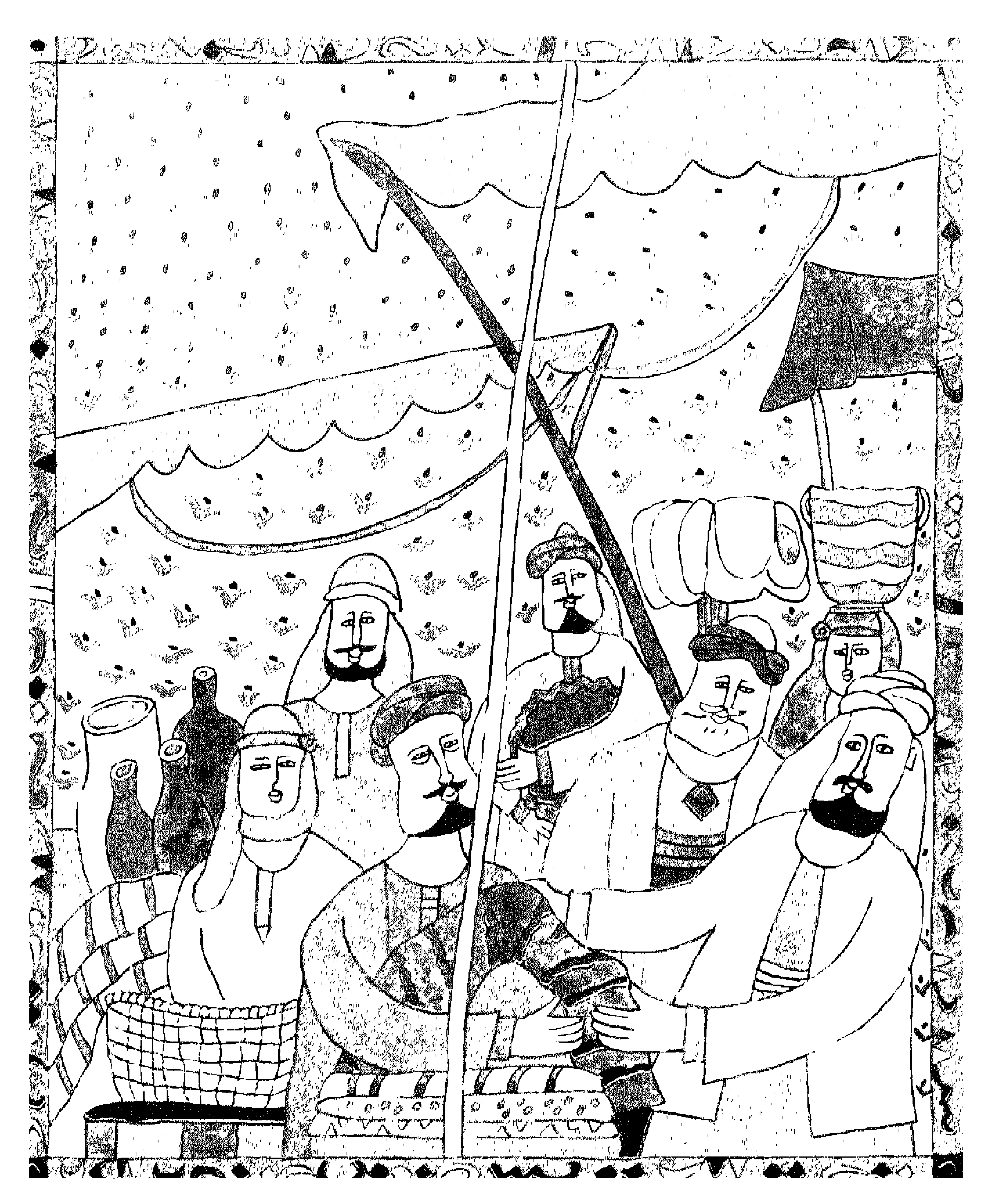


الكاهن يصيح : اقتلوا هذا الغلام

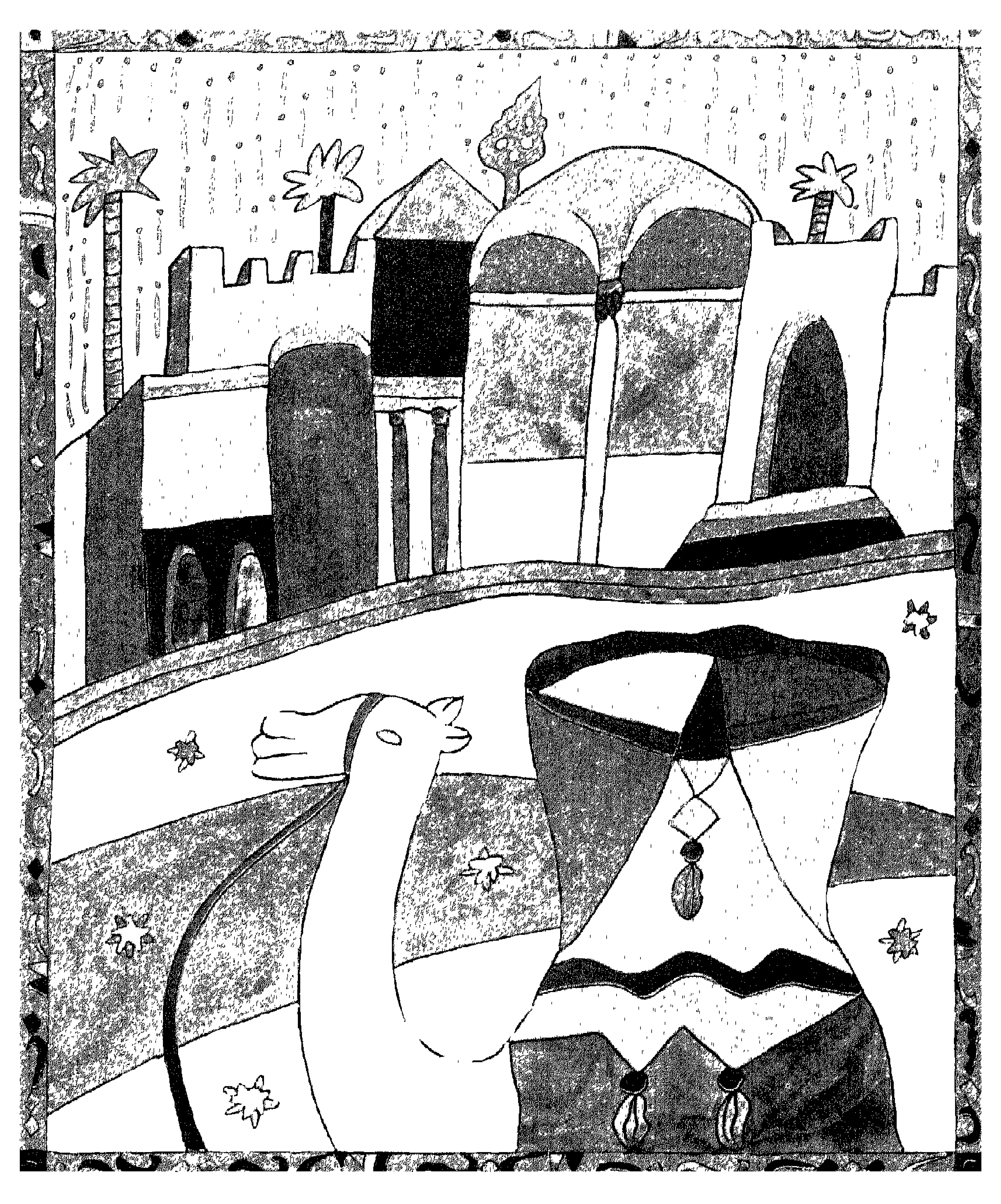


وقررا إعادة الطفل إلى أمه فى مكة

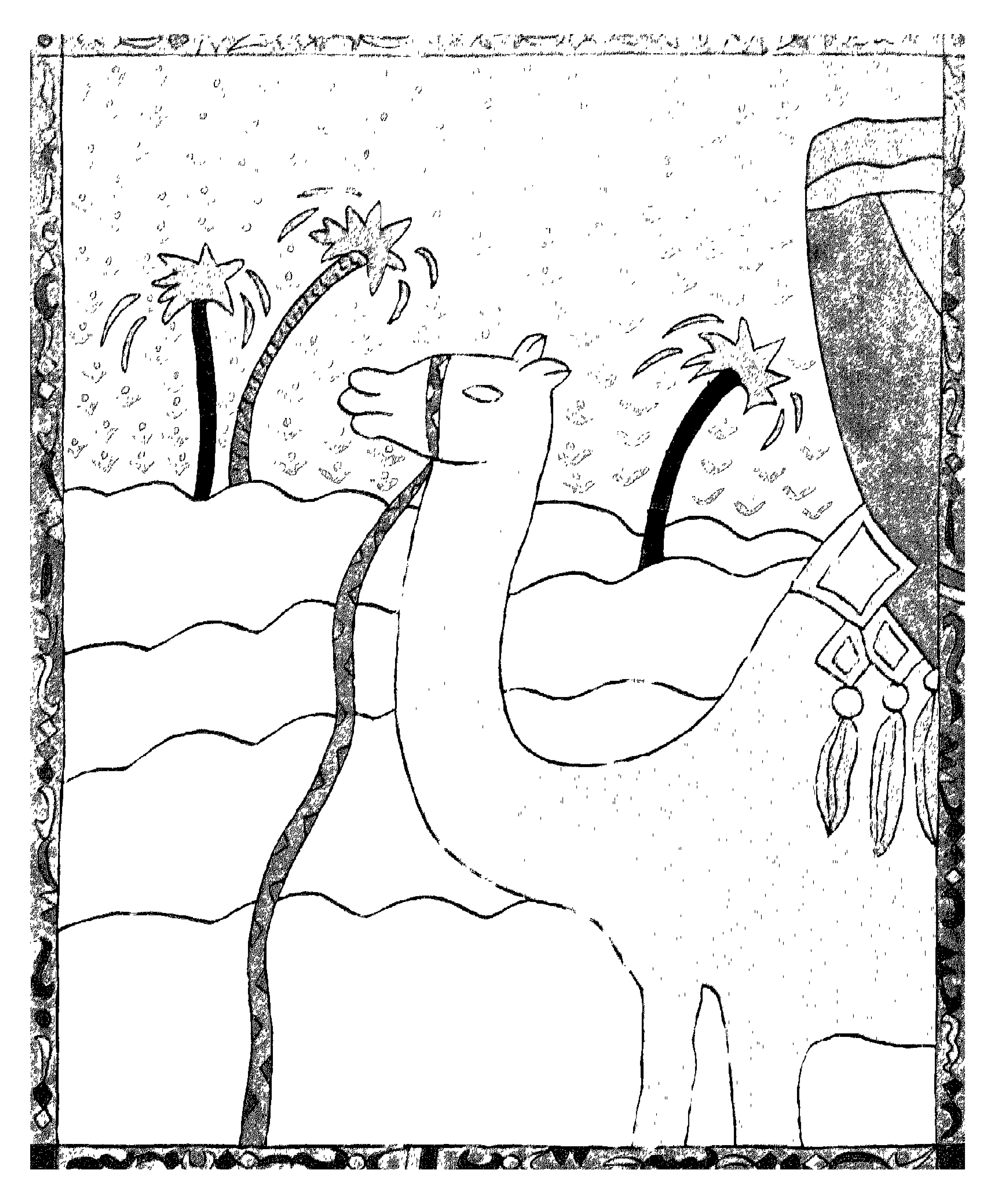




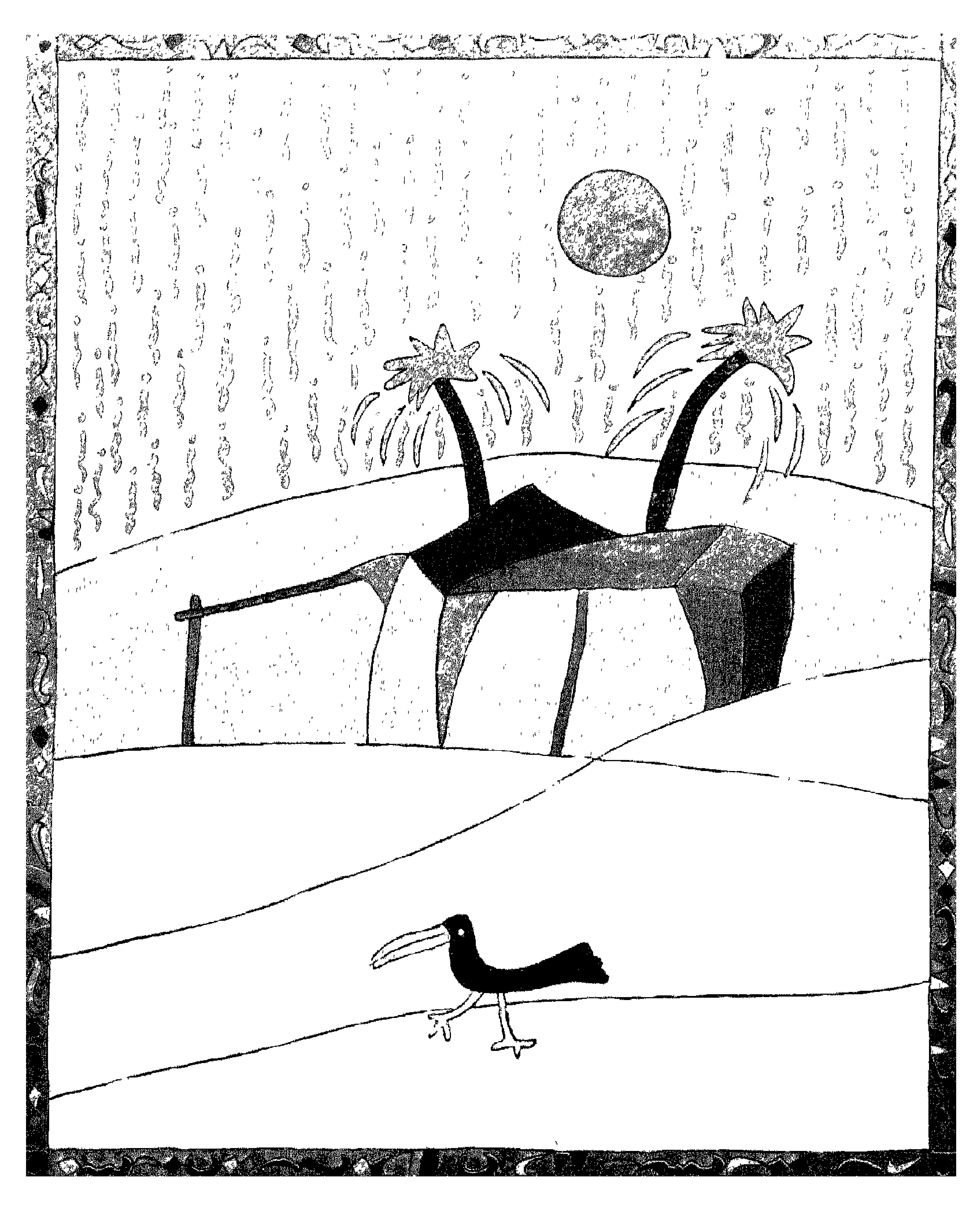
الحجيج يملؤن الأسواق بالسلع والبضائع



ورأى قصور يثرب الشاهقة



وركب الثلاثة على الناقة



ومـــاتت آمنـــة



حاول الجد تعويض محمد عن فقد والديه

لِكُلِّ هَذِهِ الأسبَابِ

ولِشُعَورِ عبْدِ المطَّلِبِ بِأَنَّ حَفِيدَه ينتظرهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ كان لاَ يَهْدأُ لَهُ بَالٌ ولا يَطْمَئِنُّ له قَلْبٌ حَتىَّ يَكوُنَ مُحَمَّدٌ بِجَانِبِه . . .

لِذَا ارْتَبَطَ مُحَمَّدٌ بِجَدِّهِ ارْتبَاطاً وثِيقاً وعَمِيقاً . . وأَحَبَّهُ بِكلِّ كيانِهِ ، ولَكِنَّ عبْدَ المطَّلِبِ مَرِضَ واشْتَدَّ عَلَيْه المَرَضُ . . وَوَقفَ بِجِوَارِه مُحَمَّدٌ يَدُقُّ قَلْبُه دَقَّاتٍ تُنْذِرُ بِقُرْبِ النِّهايَةِ لِلْجَدِّ الحَنُونِ . . وراحَ الطِّفْلُ يَنْظُرُ إِلى جَدِّه المريضِ . . ويُحَاوِلُ بَكُلِّ جَهْدٍ أَنْ يُخَفِّفَ عنه . . . وعِنْدَما كَانَ يأْتِي المَسَاءُ كان يَرْفُضُ العَوْدَةَ إِلى فِرَاشِه خَوْفاً على جَدِّه . . ويَصِرُّ عَلىَ البَقَاءِ مَعَه . . ولَكِنَّ المَوْتَ كَانَ أَسْرَعَ فَخَطَفَ رُوحَ عبْدِ المطَّلِبِ وتَرَكَ جَسَدَه شَاحِباً بَارِداً مُلْقىً على الفِرَاشِ . . وَوَقَفَ الغُلاَمُ يذرِفُ الدَّمْعَ السَّخِينَ ويَقولُ مَنْ لِي بَعْدَكَ يا جَدِّي ؟ مَنْ لِي بَعْدَك ؟ فَقَطَّعَ قُلُوبَ الحاضِرِينَ حُزْناً بينما أَسْرَعَ عمُّه أَبُو طَالِبٍ فَحَمَلَهُ وخَرَجَ بِهِ إِلى السَّاحَةِ يُحَاوِلُ تَهدِئَتَهُ .





اختار الجد أبي طالب لقلبه الكبير

ثَمَّ رَكِبَ نَاقَتَه . . ومَا إِنْ رآه مُحَمَّدٌ حتى أمْسَكَ بِزِمَامِ النَّاقةِ وقَالَ بِعِبَارَاتٍ واضِحَةٍ ومُؤثِّرةٍ . . .

ـ يا عَمّى . . لِمَنْ أَنْتَ تَارِكى . . ولَيْسَ لِى أَبٌ ولاَ أُم . . خُذْنِى مَعَك . . .

وفى الحَالِ رَقَّ قَلْبُ أبىِ طَالِبٍ وَأرْكَبه خَلْفَهُ عَلىَ النَّاقَة . وتَحَرَّكَ الرَّكْبُ وسَارَت القَافِلَةُ فى الصَّحَرَاءِ أَيَّاماً ولَيَالِى ، ومُحَمَّدٌ يُسَجِّلُ بعَينَيْهِ كُلَّ الأَحْدَاثِ . . ويُحَاوِلُ أَنْ يَكُون رَجُلاً كَبَقيَّةِ الرِّجَالِ يُقَدِّمُ المُسَاعَدَةَ للآخَرِينَ يَسْأَلُ عَمَّه عَنْ أَيِّ خِدْمَةٍ يُمْكِنُهُ القِيَامُ بها . . لا يُثَرثِرُ ولا يَشْتَكِى ، يُحَاوِلُ جَاهِدًا القِيَامَ بنفَسِهِ وبِمَنْ مَعُه ، يُسَاعِدُ فى إطْعَام الناقَّةِ وتَجهِيزِ البِضَاعَةِ فكَانَ عَمُّه يَفْرَحُ به لأنَّه لا يُشَكِّلُ عِبْئاً عَليه . . وظَلَّ الحَالُ هَكَذاَ حتى وصَلَتِ القَافِلةُ سُوق بصرى ، وَهُوَ مَكَانٌ بِشَرْقِ الأرْدُن يلتقى فيه التُجَّارُ الرومانِيُّون مَع التَّجاَرِ العَرَبِ لتبَادُلِ البَضَائِعِ . .

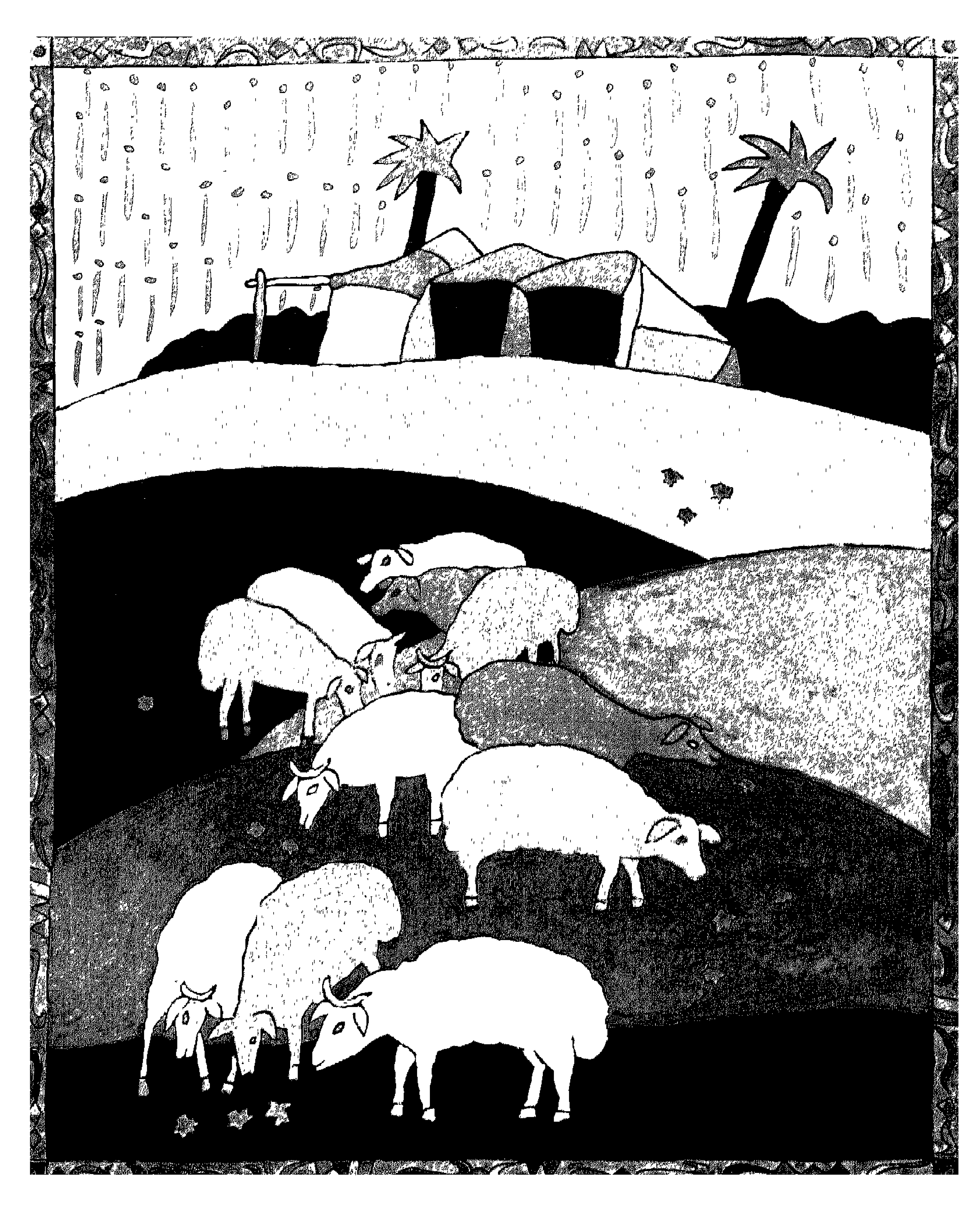


وكَانَ بالقُرْبِ مِنْ هَذَا السُّوقِ (دير) يسكنُه راهبٌ اسمُهُ بَحِيرا . . يمضى وقْتَه فى العِبَادَةِ والقِرَاءَةِ . . وعْنَدمَا انْشَغَلَ الجمَيعُ بالبَيْع والشِّرَاءِ أَخَذَ الرَّاهبُ بَحِيرا يَنْظُرُ مِنْ سَطْحِ الدِّير ثم بَدَأَ يُدَقِّقُ النَّظَر ويَفْرُكُ عَينْيه بِيَدِه . . ثُمَّ صَاحَ عَلَىَ أَهْلِ الدِّير أَنْ أسْرِعُوا وَوَجِّهُوا الدَّعْوَة لِلْقَافِلة الآتيَةِ مِنْ مَكَّةَ . . . لِلغداءِ فى الدَّيرِ وإياكم أَنْ تَنسوا أَحَدًا . . .



الراهب بحيرا ينظر فى سطح الدير





إختار محمد العمل فى رعى الأغنام

وفى أَحَد الأَيَّامِ قَالَ لَهُ بَعْضُ الأَصْدِقَاءِ . . يا مُحَمَّدُ لَقَدْ صِرْتَ فتًى قَوِيًّا . . ورَغْمَ ذَلِكَ لَمْ نَرَكَ قَطُّ فِي مَجَالِسِ الفِتْيَانِ وفى سَمَرِهِم . . دَعْ غَنَمَكَ اللَّيْلَةَ مَعَ أَحَدِ أَصْدِقَائِك وتَعَالَ إِلَى مَكَّةَ حيثُ السَّمَرُ والطَّرَبُ . . والمتْعَةُ .

وبالفِعْلِ قَرَّرَ مُحَمَّدٌ التَّوَجُّهَ إِلَى حَيْثُ يَجْتَمِعُون . . وعِنْدَما اقْتَرَبَ مِنَ المَكَانِ المحَدَّدِ سَمِعَ عَزْفًا بالغَرَابِيلِ والمزَامِيرِ فَسأَلَ ما هَذَا ؟ قَالُوا : تَزَوَّجَ فُلاَنٌ فُلاَنَةً . . فَجَلَسَ مُحَمَّدٌ يَسْتَرِيحُ قَلِيلاً ثُمْ يَذْهَبُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَكَانِ العُرْسِ . . ولَكِنَّ اللهَ ضَرَبَ على أُذُنَيْه فَنَامَ فى مَكَانِهِ حتىَّ اسْتَيْقَظَ على مسِّ الشَّمْسِ . . فَهَرْوَلَ إِلَى غَنَمِهِ وقَضَى اليَوْمَ يَرْعَاها . . . وفِى المسَاءِ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ مَاذَا فَعَلْتَ البَارِحَةَ ؟ فَحَكَى لَهُمْ مَا حَدَثَ فَسَخِرُوا مِنْه وراحُوا يُقَهْقِهُون حتىَّ يُحَرِّكُوا رَغْبَتَه فى التشبُّه بِهِم . . ثُمَّ قَرَّرَ مُحَمَّدٌ فِي نَفْسِ اللَّيْلَةَ الذهَابَ إِلَى مَكَّةَ للسَّمَرِ ، وعِنْدَما اقْتَرَبَ مِنَ المكَانِ سَمِعَ نَفْسَ العَزْفِ الموسِيقِيِّ . . فَسَأَلَ ما هَذَا قالوُا : تَزَوَّجَ فُلاَنٌ فُلاَنَةَ . . فَجَلسَ على الأَرْضِ حتىَّ يَهْدَأَ قَلِيلاً مِنْ أَثَرِ السَّيْرِ ، فَضَرَبَ اللهُ على أُذُنَيْه فَنَامَ وَلَمْ يَسْتَيقِظْ حتىَّ مسَّتْه حَرَارَةُ الشَّمْسِ ، فَرَجَعَ إِلَى غَنَمِهِ وقَرَّرَ أَلاَّ يَذْهَبَ إِلَى هَذِهِ الأَمَاكِنِ مَرَّةً





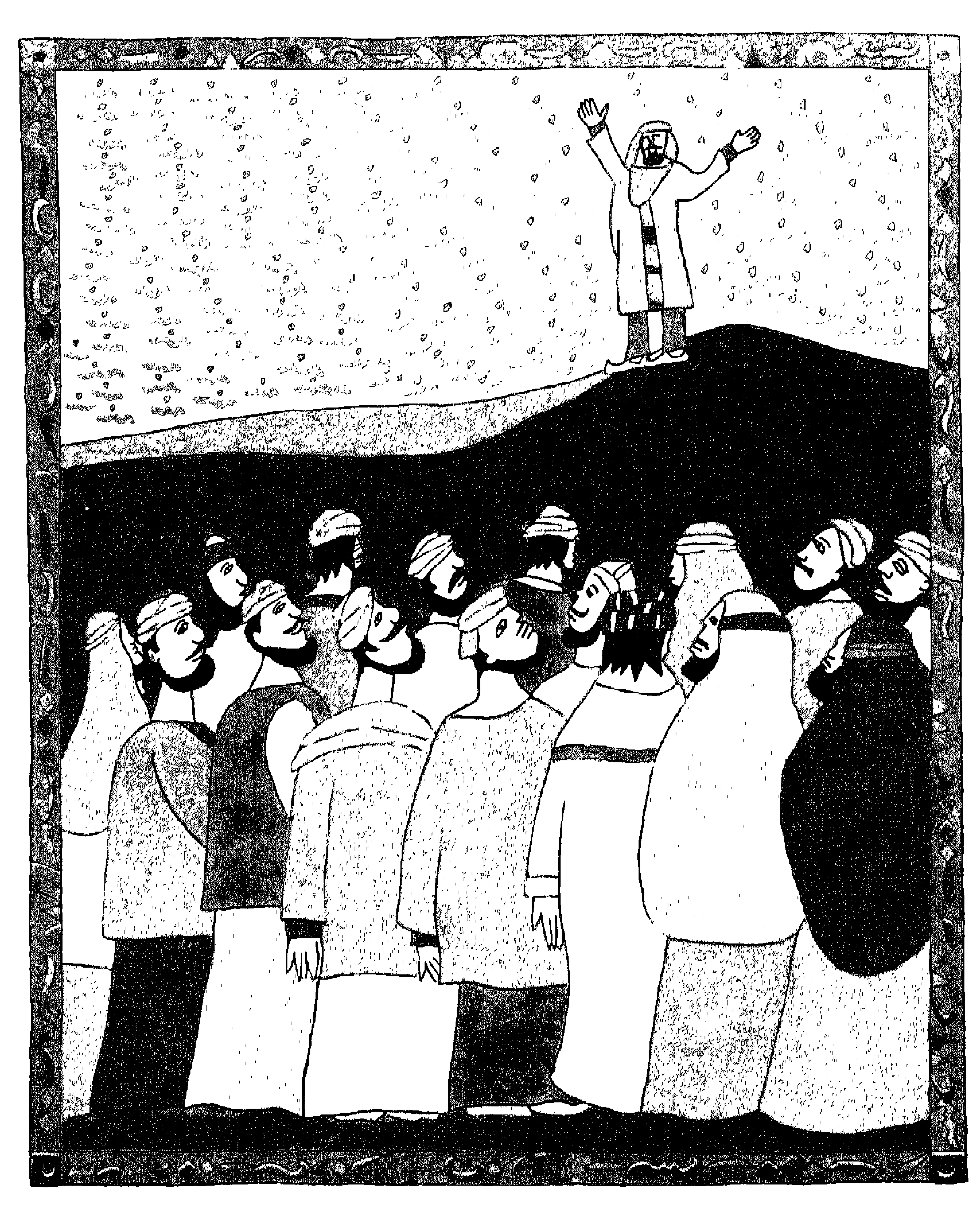
مجالس الشيطان التى حفظ الله محمدًا منها



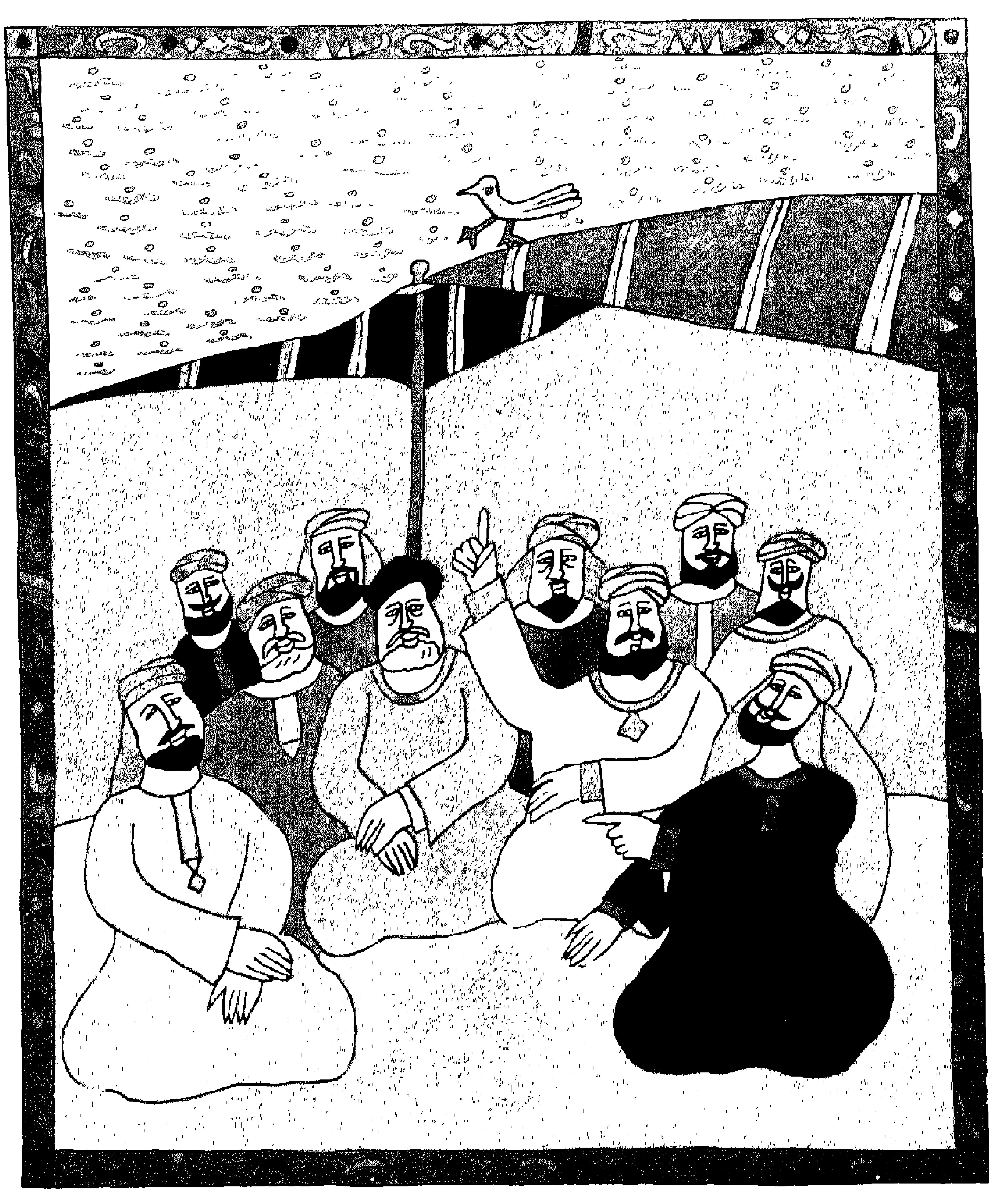
الأصنام المنتشرة فى صحن الكعبة



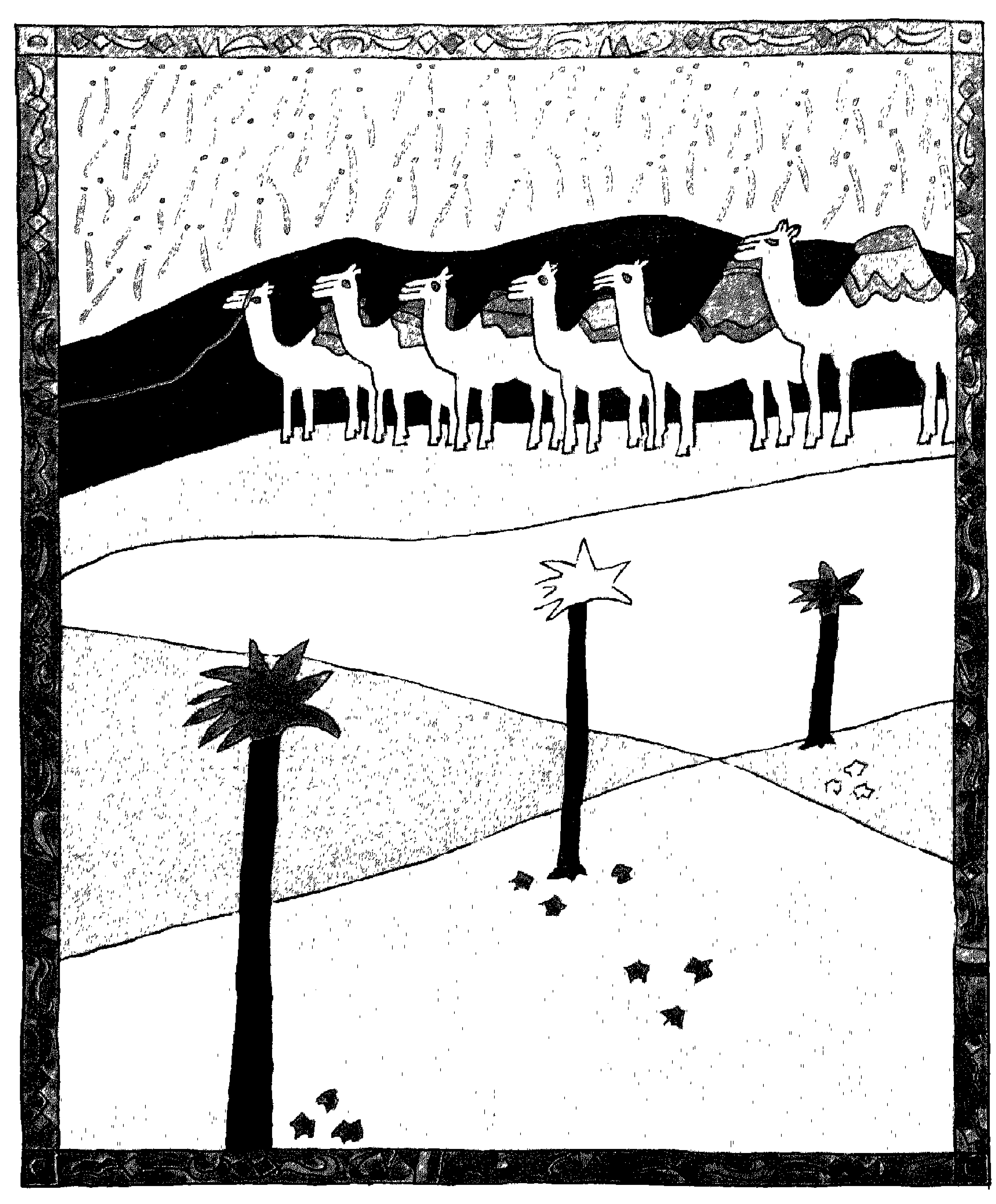
حرب الفجار



يا معشر قريش ردوا عليّ مالى الذى أخذه العاص



قرر رؤساء القبائل الاجتماع لنصرة المظلوم



وخرج محمد بتجارة خديجة إلى الشام



الراهب يسأل ميسرة



ميسرة يحكى للسيدة خديجة



نفيسة تتحدث

أُذُنَيهَا وأَسَرَّ لهَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا هَذَا فِيه مِنْ آيَاتِ اللهِ ما يُبَشِّرُ بأَنَّه النَّبِيُّ المنْتَظَرُ . . وشَجَّعَها وبَارَكَ زَوَاجَهَا . وفي نَفْسِ الوَقْتِ ذَهَبَ مُحَمَّدٌ إلى عَمِّهِ أبى طَالِب . . وأَبْلَغَهُ بالخَبَرِ فَسَعِدَ سَعَادَةً كَبِيرَةً بِهَذَا النَّسَبِ المُشَرِّفِ . . وَأَخْبَرَ العَمُّ بَقِيَّةَ الإِخْوَانِ والأَخَوَاتِ واتُّفِقَ على يَوْمِ الزَّوَاجِ . . اتَّجَهَ مُحَمَّدٌ وأَهْلُه إلى بَيْتِ خَدِيجَةَ . . وحَضَرَ بَعْضُ أَقَارِبِها وعَلَى رَأْسِهِم وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَل . . وخَطَبَ أَبُو طالب خُطْبَةً قَالَ فِيها :



(الحَمْدُ للهِ الَّذِى جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَةِ إبْرَاهِيمَ وَزَرْعِ إسْمَاعِيلَ . . وجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِه . . وحُكَّامَ النَّاسِ . . وَجَعَل لنا بَيْتًا مَحْجُوجًا وحَرَمًا آمِنًا ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِى هَذَا مُحَمَّدَ ابْنَ عَبْد اللَّه لا يُوزَنُ بِه رَجُلٌ « شَرَفًا ونُبْلاً » وفَضْلاً . . وإِنْ كَانَ قَلِيلَ المالِ . . فَإِنَّ المالَ ظِلٌّ زَائِلٌ . . وُهُوَ واللهِ بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ وخَطَرٌ جَلِيلٌ .

وخَطَبَ مِنْ عَائِلَةِ خَدِيجَةَ عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ فَقَال : إِنَّ مُحَمَّدًا قِطْعَةٌ مِنَّا وَلَيْسَ غَرِيبًا عنَّا . . وإِنَّه كُفْءٌ كَرِيمٌ لا يُمْكِنُ أَنْ يُرَدَّ أو يُهَانَ . ثم خَتَمَ ورقةُ بنُ نَوْفَل قَائلاً :

اشْهَدُوا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ أَنِّى قَدْ زَوَّجْتُ خِدَيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلدٍ مِنْ مُحَمَّد بْنِ عَبْد اللَّهِ . . وقامَ الجَمِيعُ إلى الوَليمةِ الَّتِى أَعدَّهَا مُحَمَّدٌ . . وأَخَذَتْ الجَوارِى تَضْرِبُ بالدُّفُوفِ وتُغَنِّى . .

حياتـــه الزَوْجِيَّـــةُ



عَاشَتْ خَدِيجَةُ مَعَ مُحَمَّدٍ . . نِعْمَ الزَّوْجَةُ الوَفِيَّةُ المُطِيعَةُ لِزَوْجِهَا كانَتْ لاَ تُرْهِقُه بِطَلَبَاتٍ كَثِيرَةٍ . . ولا تُثَرْثِرُ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ النِّسَاءُ . . فَلاَ تَشْغَلُ ذِهْنَه بالأُمورِ التافِهَةِ . . ولكِنَّها كَانَتْ تُشارِكُه التَّفْكِيرَ فِي الأُمُورِ العَظِيمَةِ التَّي كَانَتْ تَشْغَلُ تَفْكِيرَه ولقد فَوَّضَتْهُ فِى أُمُورِها المَالِيَّةِ والتِّجَارِيةِ وَأَعْطَته الرَّأْىَ الأخِيرَ فَكَانَ الاحْتِرَامُ المتبادَلُ هُوَ أَسَاسُ حَيَاتِهمَا الزَّوْجِيَّةِ فَعَاشَا فِي سَعَادَةٍ وهَنَاءٍ . . وَوَلَدْت لَهُ القَاسَم الابْنَ الأوَّلَ الَّذِى رَاحَ القَوْمُ يُنَادُونه . . بأبى القَاسم . . ولكِنَّهُ مَاتَ صَغِيراً فتَحَسَّرَ عَلَيْه ثُمَّ وَلَدَتْ لَهُ زَيْنَبَ ثُمَّ رُقَيَّةَ ثُمَّ فَاطِمَةَ ثُمَّ أُمَّ كُلْثومٍ . . وكَانَ من عَادَةِ العَرَبِ أَنْ يَكْرَهُوا خِلْفَةَ البناتِ ويَتَشَاءمُوا منها ، لأَنَّ البِنْتَ لا تُدَافِعُ عَنْ قَبيلَتِها إِذَا أَغَارَت عليها قِبيلَةٌ أُخْرَى ، وَقَدْ تَتَعرَّضُ لِلأَسْرِ ، لِذَا كَانَ العَرَبُ يَدْفِنُون البَنَاتِ حياتٍ دَرْءًا لِلْعَارِ . . أَمَّا مُحَمَّدٌ فَكَانَ يُثِيرُ تَعَجُّبَ الجَمِيعِ لِشِدَّةِ فَرْحَتِهِ ، كُلَّمَا رُزِقَ بِنتًا ذَبَحَ الذَّبَائِحَ وَأَقَامَ الوَلاَئِمِ وَحَمَلَها بَيْنَ ذِرَاعَيْه بِمنْتَهَى الحُبِّ والحَنانِ وراحَ يُقَبِّلُها أَمَامَ النَّاسِ . . الَّذِينَ لايَعْرِفون الفَرْحَة بالبناتِ . . بَلْ كَانَ أَحَدُهم إِذَا بُشِّرَ بالأُنْثَى اسْوَدَّ وجْهُهُ كَمَدًا وحسرةً .



وأخذت كل قبيلة بناحية من الثوب

سيد الخلق ﷺ
طفولته وصباه

أردت بهذا الكتاب أن ألفت النظر إلى شخصية « محمد » . . القرآن الذى يمشى على الأرض . . فيصل الأمن والسلام والخير والحب أينما سار وحل .

أردت أن أساعد ولو بجزء ضئيل فى عقلية أمة يأتى هواها تبعًا لما جاء به وحى السماء . . نعرف الهدف الذى نكرس له الوجود والجهود فتعمل لوجه واحد هو الله . . فيكفيها كل الأوجه وتعتز بالله فيعزها الله بنصره . . وتخدم الله فتخدمها الدنيا ولاتستخدمها .

أردت أن أشارك فى صناعة جيل يدرك أن الله قد رشحه لمنزلة ضخمة هى عمارة الأرض بالعلم الذى ألح عليه الإسلام وبالعمل الذى نادى به القرآن وأكد عليه وقرنه بالإيمان فقدمت هذا الكتاب «سيد الخلق» صلى الله عليه وسلم فى خمسة أجزاء . هذا هو الجزء الأول .

كريمان حمزة

صدر للمؤلفة

- ○ رحلتى من السفور إلى الحجاب — الطبعة الرابعة
- ○ رفقًا بالقوارير — الطبعة الرابعة
- ○ فيجار والغابة « صراع البنوك الإسلامية » — الطبعة الرابعة
- ○ موسوعة أناقة وحشمه — الجزء الأول
- ○ موسوعة أناقة وحشمه — الجزء الثانى
- ○ موسوعة أناقة وحشمه — الجزء الثالث
- ○ موسوعة أناقة وحشمه — الجزء الرابع
- ○ خمسين حل لخمسين مشكلة
- ○ الإسلام والطفل

* * *

- □ على بن ابى طالب « الفارس الفقيه العابد »
- □ أبو ذر الغفارى « حبيب الفقراء »
- □ آدم وحواء
- □ قابيل وهابيل
- □ أهل الكهف
- □ موسوعة سيد الخلق (٦ أجزاء) — تحت الطبع